

تأليف السير رايدر هجارد



تعريب . م . ع

(الجزء الثاني)

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر

نشرت تباعاً بجريدة الاهرام — المطبعة الرحمانية
بشارع الخرنفش بمصر



تأليف السير ريدر هجارد

تعريب م. ع

(الجزء الثانى)

نشرت تباعاً بجريدة الاهرام

تطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش بمصر

الفصل الحادى عشر

« وداع جوليت »

عاد جودفرى الى « البيت الابيض » وهو يحمل ساعة ذهبية جميلة أهداه إياها الرجل الذى أنقذ حياته وأعضاء أسرته فوجد مدام بوزيت وجوليت وجميع الخدم فى انتظاره فحيته السيدة وابتهجت به جوليت الحسناء وهمست في أذنه قائلة إنها لم تكن تظن أنه شجاع الى هذا الحد وانها تشكر الله على نجاته

وصل جودفرى بعد ذلك الى غرفته فوجد على المنضدة خطابين أحدهما من أبيه والآخر مكتوب بخط غليظ غريب لا يعرفه ففض غلافه في الحال وكان مكتوباً باللغة الفرنسوية وقد جاء فيه ما نصه :—

« آه ! أيها الأخ الصغير - إنى أعرف كل ما أصابك فلا حاجة تدعو أمك الى الانتظار لتقرأ قصتك فى الصحف . فقد رأيت الحادث في الكرة المصنوعة من البللور التي لدى قبل وقوعه فرأيتك والرجل مدلى فى ذراعك وغير ذلك ولكن جاءت بعدئذ سحابة فوق الكرة فلم استطع رؤية النهاية. وقد رجوت أن يجذبك معه الى الهوة بحيث لا تمضى لحظة حتى تكون قد صرت كومة

من اللحم المهشم فى قاع الهوة لأنك لا تجهل إن نكران الجميل والمعاملة السيئة يغضبانى. لا تظن أيها الاخ الصغير انى صفحت عنك لأنك أتيت بهذا الاسقف المرذول الى بيتى ليسبني ويتهددني كلا لن أصفح عنك. إننى أدعو الأرواح ليلا ونهاراً أن تكيل لك بنفس الكيل الذى كلت لى به . ولعمرى هى الارواح التى أعدت هذا الحادث الصغير على أنها أخبرتنى ان روحاً أخرى تدخلت فى الأمر وأنقذتك فى آخر لحظة . فاذا كان الأمر كذلك أتمنى لك حظاً سعيداً فى المرة التالية لأنك لن تفلت من يدي أومن أيديها ولو كنت قد أظهرت ولاءك واخلاصك لنا لنلت أعظم قسط من السعادة ولفزت بكل ما تتمناه فى الحياة ومن ذلك أعظم شيء تطمع به . إعلم إنك مادمت سائراً على خطتك هذه فانك تكون دائماً هدفاً للاخطار وتحملت المشاق وحرمت كل ما تتمنى وتريد . . .

هل قبلت الفتاة الحسناء مرة أخرى وحاولت إفساد أخلاقها كأمها ؟ أرجو أن تفعل ذلك لكي يتألم الاسقف الشيخ الجاهل . لا تنس أن العيون تتبعك أينما ذهبت — عيني وعيون الارواح . الا مقتاً لك وشقاء أيها الاخ الصغير من أمك العزيزة التى أغضبت قلبها الطيب. أتمنى لك الشقاء والبؤس طول الحياة . ستعرف بالطبع من أنا ولذا لا حاجة تدعونى الى توقيع الخطاب»

ملحوظة — أن « الينور » ترسل اليك مقتها وغضبها من عالم آخر»

وقعت هذه الرسالة الغريبة على جودفرى بين رسائل التهنئة كهبوب ريح ثلجية في يوم أشتد قيظه وفى الواقع اضطرب الشاب اضطراباً شديداً وتساورته المخاوف

كان جودفري قد حاول أن ينسى كل شيء يتعلق بمدام رينس ولكنها طعنته من بعيد ـ لأن طابع البريد كان مختوماً باسم البندقية ـ فخار في نفسه وهاله الأمر . وقد زادت آلامه لانه لا يستطيع استشارة المستر بوزيت فى الامر بسبب الاشارة التى ذكرتها مدام رينس فى خطابها عن الواقعة التى حدثت بينه وبين جوليت

القى جودفري الخطاب كأنه حية مؤذية وتناول الخطاب الثانى الذى أرسله والده وكان قصير العبارة وقد هنأه فيه بلهجة باردة على نجاته قائلا إنه علم بها من الصحف لا منه . وليس فى ذلك ما يدعو الى الدهشة لان الخبر أرسل الى انكلترا تلغرافياً قبل أن يجد جودفرى متسعاً من الوقت لارساله . على أن الشاب لم يكتب الى أبيه شيئاً لانه كان يعلم حق العلم أن والده سيقابل كلامه بالاستخفاف والانتقاد كعادته . وقد أوصاه المستر نيت فى خطابه هذا أن يعدل عن تسلق الجبال قائلا انه انما أرسله الى سويسرا ليتسلق جبال العلم والمعرفة لاجبال الالب . وزاد على ذلك قوله « لو كنت قد قتلت ـ وهو مالا اهتم به كثيراً لانني واثق من انك ستذهب الى عالم آخر خير من هذا ـ لارتكبت خطأ ضد

أسرتك اذ لو تم ذلك وأنت لا تزال قاصراً لعادت الاموال التى خلفتها لك صديقتك اليهابدلا من أن ينتفع بهاوارثوك الطبيعيون »

أنعم جودفري النظر فى الكلمتين الاخيرتين (وارثوك الطبيعون) وقال ترى من يكون هؤلاء ؟ وأخيراً علم أنه ليس هناك غير وارث واحد وهو والده وان هذا هو سبب الهواجس التي تجلت من خلال سطور الخطاب فألقاه باستياء فوق خطاب مدام رينس

غادر جودفرى الغرفه بعد ذلك حزيناً كئيباً ثم انتهز فرصة اشتغال الذين ازدحموا في الردهة الخارجية لتهنئته وتحيته بشرب النبيذ الابيض وانسل من الباب الخلفي ليسير بين الاحراج والغابات حيث يجد مكانا صالحا يتفرغ فيه لافكاره وهواجسه

لم يشعر جودفرى فى كل ادوار حياته بأنه وحيداً مثله الآن ولا عجب فقد كان هو وابوه على طرفي نقيض ولم يكن له اقرباء آخرون فى حين كان يعوزه الاصدقاء . اما مس اجليفي التى بدأ يحبها فقد ماتت

لم يبق احد غير الاسقف الذى كان يزداد حب جودفرى له بحيث كان يتمني ان يكون والده الحقيقى وفيما عدا ذلك كان العالم كسجن مظلم امامه عدا اليصابات التى هجرته

تولد فوق ذلك شعور جديد فى علاقة جودفرى باليصابات زاد في آلامه . وكان هذا الشعور ـ وان لم يكن قد ادركه الشاب ـ هو الميل الجنسى الذى بقى سراً غامضا منذ الابد وكان نقمة اكثر

منه نعمة على العالم فانه اذا كان الاختلاف الجنسي اصل الحياة فانه أيضاً أصل الشقاء لأن الحياة والشقاء لا يفترقان . ولكن من مزايا الزواج ـ اذا بقي وقتاً طويلاً ـ أن يجعل الالفة ممكنة اذا ضعف التجاذب الجنسي الذي كان سبباً في رابطة الزواج وربما كان أحسن ما قيل عن السماء ان ليس بها زواج ولو كان الامر غير ذلك لما استطعنا ان نسميه سماء بالمعني الذى نعرفه اذ يجب اذ ذاك أن تتولد الرغبة والغيرة وحب النفس والخيبة وكذا الموت والحياة لاننا لا نستطيع أن نرى الحب الجنسى بدون غاية وليس هناك بداية بدون نهاية. . . أما الملائكة فمنزهون عن كل ذلك

اشتدت آلام جودفرى وعظم حزنه. ولما لم يكن قد بلغ من العمر حدا يستطيع معه أن يستر آلامه النفسيه كما يجب أن يفعل الناس فى الحياة فقد نم وجهه على متاعبه الداخلية

لاحظ جميع أفراد الاسرة في تلك الليلة علامات الكدر وهى بادية على وجه الشاب فانه بدلا من أن يكون مبتهجا مسروراً كان حزيناً قليل الكلام

ذهب الاسقف وجودفرى بعد العشاء الى المرصد كعادتهما فنظر الشيخ الى الشاب هنيهة ثم قال

ـ ماذا أصابك ياجودفرى ؟ اخبرنى

فتورد وجه الشاب ثم قال

ـ لا أستطيع

ـ هل الأمر أجل خطباً مما سبق ؟ أظن انك تلقيت خطاباً أو خطابين

ـ تلقيت خطابين أحدهما من أبى وقد انتهرنى فيه لأ نني أشرفت على الهلاك

فهز الشيخ كتفيه وقال

ـ ان أباك مغرم بذلك ولكن هذاليس بالجديد فقد تعودت ذلك من قبل . ما أمر الخطاب الآخر ؟ هل هو من مدام رينس ؟

ـ انه خال من التوقيع . على إننى أظن انه منها

ـان هذا غريب. إنني تلقيت خطاباً منها بدون توقيع أيضاً وأظن انك بعد قراءته تستطيع أن تطلعني على خطابك وان تخبرنى حقيقة كل هذه التهم التى تسندها اليك والى ابنتي جوليت

تورد وجه جودفرى خجلا وقال بصوت خافت

ـ كيف استطيع ؟ إننى لا اهتم بأمر نفسى ولكن فى ذلك ما يعد خيانة مني . . . لشخص آخر

ـليس من الخيانة ياولدى أن تطلعني على أمر أعرفه ضمن أمور أخرى . هل هذا الخطاب يتعلق برحلة كنتما تشتغلان فيها بالبحث عن الازهار ؟ آه ؟ أرى ان الامر كذلك . اذن أرنى الخطاب وأنت مطمئن لأ ني أعرف كل شيء عن هذه الرحلة

فأخرج جودفرى الرسالة ونسى أنها تشتمل على إشارات أخرى عن السيدة ثم ناوله اياها

فقرأها لاسقف بروية دون أن يبدى أقل انفعال ولما فرغ من تلاوتها قال

ـ آه ! إن هذه الساحرة العجوز ماهرة في اختيار سبلها ولكن سيأتي يوم ترسل فيه الى نار حامية اذ قد يكون من يستحقون مشاطرتها هذا العذاب هذا اذا لم تتب الى الله وتنيب . . لقد قرأت ماقالته عن السيدة بالطبع ولكن اعلم ياولدي ان زوجتي العزيزة قد تكون اخطأت يوماً ما كمعظم الناس ولكن لاحظ أن هناك فرقاً عظيما بين الذين نصادفهم أوقاتا يرتكبون فيها أعمالا تنطوي على الحق مهما كان نوعها وبين الدين لاعمل لهم غير السعي وراء اكتساب هذه الاوقات . وكذا هناك فرق بين الذين يندمون على اغلاطهم وبين الذين يبتهجون بها ويحاولون متابعتها . واذ كنت في شك من ذلك فاقرأ ما ورد في الكتب السماوية تجد كثيرا من الادلة التي تؤيد لك قولي هذا . وقد عنت أحيانا تلك الاوقات فبذلت جهدي في مساعدة زوجتي فنلت أحسن الجزاء

ثم كسي وجهه ببريق الفرح وعاد الى الكلام فقال

ـ نعم نلت أحسن الجزاء مستحقا الساحرة الشطاء ! الان اخبرني بحقيقة ماوقع بينك وبين جوليت وأنت مطمئن الخاطر لان جوليت اخبرتني بما جرى وأريد ان أقارن بين أقوالكما

فأخبره حودفرى بالقصة كلها ولما فرغ اغرب الشيخ فى الضحك ثم قال

ـ لعمرى انكما مذنبان بحيث يجب أن تقفا بلباس أبيض على جانبي المذبح والزهرة البيضاء بيـكما. إصغ الي ياجودفرى . ان هذا كله محض ترهات .... نعم يعتقد معظم الناس اننى شيخ غر ابله يوحي هذا النحيف ونظارتى الزرقاء ولكن الجهلاء يدركون احيانا ما هنالك . فاعلم ياولدى اننى لاحظت ان السيدة تريدان تزوج ابنتها جوليت برجل غنى كما لاحظت انها ترى فيك كفئاً لجوليت وقدبذلت اقصى جهدها لتحمل جوليت على احترامك وحبك وهو شيء تشكر عليه . ولكن اعلم ياولدى ان ذلك كله ضرب من الجنون واذا شئت قلت لك انك لاتهتم ولن تهتم بجوليت وانها لا تهتم ولن تهتم بك . اذ طبيعتك تختلف عن طبيعتها فالزواج انما شقاء لك وشقاء لها لانكما على طرفى نقيض . وفوق ذلك لو فرض وكان الامر غير ذلك فهل تزعم انني أسمح بذلك وأنت لا تزال شاباً تحت وصايتى ؟ كونا صديقين حميمين وفتشا عن الازهار ما شئتما لانه لن يترتب على ذلك شيء فقط لا يقبل احدكما الآخر لان في القبلات خطر جسيم ومعظم النار من مستصغر الشرر

فصاح جودفري قائلا

ـ كلا . لن افعل

ـ اذن . عند هذا الحد انتهى كل شيء (لقد اخطأ الاسقف

فيا قال ولو انه لايدرك الحقيقة) الآن لنتكلم على ماورد فى بقية الخطاب . فاعلم ان هذه المرأة الشريرة ستعمل دائماً على الاضرار بك وربما نجحت . انهذاجزاءالاختلاطبمن يستحضرون الارواح ياولدي ولو أن الذنب ليس ذنبك . إننا نجنى دائماً في هذاالعالم اغلاط غيرنا · ولكن مع ذلك لا تخف لان الغلبة ستكون لك فى النهاية وليست لها . .. ستغادرنا ياجودفرى عماقريب لان العام الذى جئت لتقضيه بيننا كاد ينتهي فعليك أن توجه أفكارك الى حياة أخري . أتوسل اليك ياولدى أن لاتنسانى اذا ما غادرتنا اذ ليس لى بنين وقد أحببتك كابنى أو أكثر لأننى لاحظت أن المحبة كثيراً ما تكون بين الغرباء أمتن منها بين الاباء والاولاد . وكذا أتوسل اليك أن تتخذنى مرشداً لك اذا كنت ترى فى شيئاً من الحكمة فتكتب الىّ عما يصادفك من المشاق والمتاعب لاننى وصيك فى هذه الملتسكات ... الان هيا نشتغل برصد النجوم فانها أعظم تسلية من مدام ريس . لعمرى من الغريب أن يفكر الانسان ان الله الذى نظم الافلاك خلق أيضا مدام رينس ... حقاً انه اله محب صبور !

فقال جودفرى

ــ ربما خلقها الشيطان

فتبسم الاسقف وقال

ــ قد يكون ذلك . ولكن لم يذكر شىء بهذا الصددوأظن

انه ورد في المزامير (الزابور) ان الله خلق الخير والشر لاغراضه الخاصة التي لا أدعى معرفتها على رغم تضلعى ومعرفتى

***

صدق الاسقف فى قوله أن مدام رينس سوف لاتألو جهدا فى مد يد الأذى الى جودفرى كما أنه اخطأ عند ما قال أن الالام التى سببتها قد انتهت وكان الشاب يدرك هذه الحقيقة المؤلمة . وفى الواقع لم يمض اسبوعان أو نحو ذلك حتى تلقى جودفرى خطاباً آخر من أبيه وقد أبلغه فيه أنه (المستر نيت) تلقي خطاباً بدون توقيع يقول أنه ـ جودفرى ـ يعيش عيشة سيئة فى لوسرن وانه سيقع في شرك الزواج بابنة المستر بوزيت وان بعضهم رآه وهو يعانقها وراء بعض الصخور . ثم جاء فى نهايته ما يلى

" ولما كانت هـذه الانباء تحتاج الى دليل لم اتخذها قضية مسلمة ولو أنه ليس هناك دخان بلا نار . وعندى من المحتمل أن يكون فى هذه الاقوال شيء من الحقيقة وانك تسلك طريقا لا أريدها . وعلى كل حال أرى أن الوقت قد حان للعودة الى بلادك لتبدأ علومك الكنائسية فاطلب اليك أن تفعل ذلك فى الحال لانى سجلت اسمك فى مدرستى وأبلغت الوكلاء الذين عينتهم مس إجليني في وصيتها وهؤلاء وسيقدرون بالطبع نفقاتك ويعطونك مرتبا كافيا

وقد كتبت الى المستر بوزيت بهذا المعني . وسنبحث في تفاصيل هذا الأمر بعد وصولك

والدك المحب

رتشارد نيت

سار جودفرى حزين القلب يحمل خطاب والده الى الاسقف وكان آخر شيء يريده الشاب هو مغادرة " كليندورف " والمنزل الذى وجد فيه معاملة حسنة ليعود الى منزله فى " دير الراهب ".

بسكس

قال المستر بوزيت عند ما أطلعه جودفرى على الخطاب

ـ تلقيت كذلك خطابا من أبيك . والظاهر اننا نتلقى دائما الانباء السيئة معا وقد كان آخرها خطاب مدام رينس . إن لهجة أبيك فى الكتابة شديدة على رغم طيب أخلاقه فقد أتهمنى بأننى أحاول أن أوقعك فى الشرك لأزوجك بابنتى وهذا راجع الى دسائس مدام رينس ولو قال اننى أحاول أن أوقعك فى الشرك لتكون بين السكان أقرب الى الحقيقة أما التهمة التى عزاها الى فأنت علم ببعدها عن الحقيقة . وعلى كل حال يجب أن تسافر يا ولدي فقد حان وقت عودتك بعد ما اجدت اللغة الفرنسية ومعلومات أخرى وصارت ابواب العالم امامك مفتوحة . ان أباك يريد أن تنضم الى الكنيسة فهل ذلك صحيح ؟ اذا كان الامر كذلك فانني أكون سعيداً

فهز جودفرى رأسه وقال

ـ كلا

فقال الاسقف

ـ اذن أقول اني سعيد كذلك . ليس كل انسان لديه مايؤهله الى السير فى هذه الطريق وهناك طرق أخرى كثيرة لعمل الخير في العالم غير منبر الخطابة وعلى الانسان أن يسعى لفعل الخير جهده اعلم ياولدى اننا جميعاً نسير في سفينة القدر ولكن لهذه السفينة ربان يعلم الى أين يقودها

سافر جودفرى بعد أيام قليلة . وفى يوم سفره اشتد حزن جميع أفراد الاسرة فبكت مدام بوزيت وارتسمت علامات الكآبة على وجه جوليت ولو أنها كانت مطمئنة في نفسها لقرب وصول ابن عمها جون فى اليوم التالى لقضاء أيام عطلته . وفى الواقع كانت تنوى فى نفسها القيام ببعض تغيرات فى نظام غرفة جودفرى لتهيئتها للضيف الجديد

على انها كانت آسفة على فراق صديقها ولو انها لم تستطع تحقيق رغبات امها فتوقعه فى شرك غرامها او تقع هى فى شرك غرامه فقد كان ذلك مستحيلا لما كان بين طبيعتيهما من التفاوت العظيم والتناقض

اما الاسقف فكان يحاول تخفيف الكدر البادى على وجوههم بما كان يذكره من القصص والنكات وتهنئة جودفرى باطلاق

مراحه من مكان كثيب (كـكليندرف) . فى حـين لزم جودفرى الصمت تقريبا وهو يعلم ان الاسقف يجهل الحالة السيئة هناك فى اسكس

حان وقت السفر فقام جودفرى وهو مهموم القلب حزين الفؤاد لانه أحب هذه الاسرة ولا سيما الاسقف . وقد ابتهج جودفرى عند فراغ حفلة الوداع بعد سير المركبة التى أقلته الى المحطة ولـكن لم ينتـه الامر عنـد هـذا الحد فقـد رافقه الاسقف الى المحطة ليتلقى تعمات جودفري بشأن قصر أجليني ولو أنه لم يكن لدى الشاب مايقوله اذ قال

ـ افعل كل ما تراه صالحاً يامستر بوزيت

وفوق ذلك لمـا انحنت المركبة في سيرها أثناء الطريق رأي جودفرى جوليت واقفة فوق صخرة عالية وكانت قد وصلت الى المـكان جريا من طريق مختصر يخترق الغابات . ولم يكن لديهم وقت للوقوف فتبادلا التحية اشارة فقبلت جوليت يدها اله وصاحت وعيناها مغرورقتان بالدموع قائلة

ـ الوداع . الوداع ياعزيزى

فرد جودفرى عليها التحية باحناء رأسه ورفع قبعته

لاحظ الاسقف بكاء ابنته فقال

ـ ليس هذا بأمر ذى بال فسيأتى ابن عمها غداً فيعزيها على فراقك

وهنا نذكر ان ابن عمها هـذا عرف كيف يعزيها ويسليها

بحيث لم يمض عام واحد حتي تزوج بها وعاشا فى هناء وسعادة

بيد انه كتب على جودفرى ان لايراها مرة أخريفقدماتت جوليت قبل أن يزور جودفرى لوسرن مرة أخرى وهي تلد طفلها الثالث . وقد اقترن زوجهابغيرها أما اطفالها فكانوا حديثى السن بحيث لم يتذكروا أمهم . وقد انتقلت مدام بوزيت الى العالم الآخر أيضا والتحقت بابنها ولم يبق من أفرادالاسرة غيرالاسقف المسكين

هذه سبل الحياة فى هذا العالم التعس ـ عالم التغيير والموت

على أن جودفرى لم ينس كل حياته جوليت وهي واقفة تلهث من كثرة الجري ونودعه بتقبيل يدها له ولا عجب فان مثل هذه الحوادث تبقى عالقة فى الذهن مدى الحياة فلا تمحوها الايام

وجد جودفرى عند وصوله الى المحطة مسجل العقود الذى يتولى ادارة ممتلكات مس إجليني فى لوسرن وكذا بعض خدم القصر فى حين كان بين الذين يروحون ويغدون على رصيف المحطة ـ الكولونيل سمث والاستاذ بترسن وقد قدما ليرياه عند سفره ويبلغا مدام رينس آخر انبائه

وكان الاسقف يتكلم باستمرار بصوته الرفيع العالى ليخفي تأثره الذي لم يدرك جودفرى كل سببه وأخيراً عانقه الاسقف ووضع قبلة على جبينه ثم باركه ودعا له بالخير والسعادة

سار القطار بعد ذلك فابتهج جودفري لانتهاء الامر

الفصل الثاني عشر

الى الوطن

وصل جودفرى بعد ثمان وأربعين ساعة الى محطة اسكس الواقعة على بعد ثلاثة أميال من « دير الراهب » فلم يجد احدا فى استقباله وهو أمر لا يدعو الى الدهشة اذ لم يكن أحد يعرف موعد قدومه . وعلى كل حال استاء جودفري للفرق الهائل الذى وجده بين وداعه يوم سفره وبين استقباله يوم وصوله

غادر الشاب أمتعته في المحطة لينقلها الحمالون الى المنزل وأخذ « عصا الالب » التى أهداها إياه المرشد يوم تسلق حبال الالب كتذكار لذاك الحادث العظيم . وكانت هـذه العصا أثراً نفيساً يرجع عهدها الى سنة ١٨٣١ ولذا حافظ عليها المرشد وأبوه وجده من قبل . وكان جودفرى يقدر قيمتها فاخذها معه ومشى

سار جودفرى فمر فى طريقه بقصر « هوك هول » فوجده مظلما لان اليصابات غادرته بعد وفاة أمها وسافرت الى أميركا في حين كان السر جون بلاك يقطن فى لندن

تنهد جودفرى وتسرب الهم والكدر الى قلبه ثم سار فى

طريقه . وكان عليه أن يجتاز فناء الدين فرأى عموداً كبيراً من الرخام نقش عليه بحروف ذهبية الكلمات التالية : « لذكرى المرحومة اللادى جونيا بلاك زوجة السرجون بلاك وابنة اللورد لينفلد »

تذكر جودفري السيدة البارة فترحم عليها ثم سار الى الدير وقد قاوم في نفسه رغبة شديدة لدخول الكنيسة ورؤية قبر السيدة وزوجها المجهول وهو القبر الذى وقف هو اليصابات امامه مرة

دق الشاب على الباب ففتحت له امرأة متوسطة العمر فأبلغته أن المستر نيت فى الخارج ثم أبت أن تدعه يدخل الي المنزل على رغم أقواله وقفلت الباب فى وجهه

فتذكر جودفري الباب الآخر الذى يوصل الى غرفة الطعام الكبرى وكان مفتوحاً فدخل وجلس على الكرسي الذى فى نهاية الطاولة العتيقة وهو الكرسى نفسه الذى وجدته اليصابات جالساً عليه يوم قبلته وهو نائم

جلس جودفرى يقلب الطرف فيما حوله ويلاحظ التغييرات التى طرأت على المكان أثناء غيابه وقلبه مهموماً الى أن أتت مسز بارسن ورأته وقد كاد يغلب عليه النعاس فابتهجت به وحيته مظهر حبها القديم الذى كان أول عطف لقيه بعد وصوله

صاحت السيدة قائلة :

يا إلهي ! المستر جودفرى لو لم اسمع بقرب مجيئك ولما وثقت

بانك أنت فقد كبرت وصرت رجلا جميلا . من أن يقول انك ابن أبيك ؟ أظن انك منهوك القوى بعد سفرك الطويل فتعال الى غرفة الطعام لتتناول فنجانا من الشاي

ذهب جودفرى الى هناك بعد أن عرج على الردهة حيث ترك عصاة فى حمالة العصى وبعد تناول الشاى قصت مسز بارسن الانباء فقالت أن السرجون بلاك يعيش فى لندن عيشة التبذير وان اللادى جونيا ماتت وسافرت ابنتها اليصابات بعد نزاع وقع مع أبيها الى أميركا ولم يسمع عنها شيء بعد سفرها . وقد كبرت هي أيضاً وترعرعت وصارت فتاة جميلة فتانة

هذا ما وقف عليه جودفرى قبل أن تغادره مسز بارسن الى أعمالها

ذهب جودفرى الى غرفة نومه فوجدها غير مرتبة اذ يظهر أن بعضهم يستخدمها لنومه . وبينا كان يجول بعينيه فيها سمع أباه فى الردهة يسأل الخادمة عمن ترك « هذه العصا الغريبة » فى حمالة العصى فأجابته انها لاتدرى فأمرها بالقائها خارجا وقد وجدها جودفرى فيما بعد بين الاخشاب التى أعدتها الخادمة لحرقها للطبخ

نزل جودفري وواجه أباه فصافحه هذا ببرود لأنه لم يعين ساعة وصوله . ثم قال ان الوقت قد ضاع لنداء الحمالين للمجيء بأمتعته وان الامر يتطلب ارسال عربة تقتضى نفقات كبيرة

فقال جودفرى :

ـ سأدفع أجرتها من جيبي

فقال المستر نيت مستهزئاً :

ـ آه بالطبع لقد نسيت انك حصلت على مبلغ من المال بطريقة ما ولا ريب فى انك تعد نفسك الآن مستقلا

ـ نعم ويسرنى ذلك يا أبتى لانى أصبحت لا أكلفك شيئاً

فقال المستر نيت بلهجة شديدة :

ـ أما وقد تكلمت عن المستقبل فأريد أن أخوض معك فى حديث يهمنى . أظن انك قررت الذهاب الى الكنيسة طبقا لرغبتى ؟

ـ كلا . يا أبى . لا أريد ان أكون قسيسا

ـ أحقا ما تقول ! يظهر انك تأثرت تأثراً سيئا فى سويسرا ولكن ليس فى ذلك ضرر لانى عولت على أن تسلك الطريق التى رسمتها لك

ـ بكل أسف لا أستطيع ذلك ياوالدى

ثار غضب المستر نيت فحمل على ابنه وأتهمه بانه سلك مسلكا سيئا فى لوسرن كما علم ذلك من « مصدر خارجى » وصرح بان عليه أن يترك عشرته أو يخضع لارادته . وكان جودفرى قد ثار غضبه أيضا فلمح انه يفضل مغادرة أبيه فقال المستر نيت إذ ذاك

ـ ماذا تنوى عمله اذن أيها الشاب ؟

ـ لا أدرى يا أبتى . . . ولكن قد أذهب منها الى لندن لاستشارة الاوصياء الذين عينتهم مس اجليفي فى وصيتها

فقال المستر نيت بسخط :

ـ ألا تزال تطمع في تلك الاموال التي اكتسبتها من وجه سيء ؟

حسن . ولكن اذا كنا قد اتفقنا على ذلك فلماذا لا تسافر الليلة بدلا من الغد بقطار الليل ؟ ربما وجد كلانا فى ذلك راحة له وفوق ذلك لا حاجة الي المجيء بأمتعتك ولا اخراج الصبي الذى يقطن في غرفتك

ـ هل تعنى ما تقول ياأبتي ؟

ـ لم أتعود أن أقول مالا أعنى . اعلم أنك اذا رفضت مشروعاتى التى وضعتها لمستقبلك بعد روية وانعام نظر غسلت يدى منك

نظر جودفرى الى وجه أبيه والى عينيه الصغيرتين الباردتين فادرك مبلغ غضبه الذى يرجع أكثره الى الغيرة من استقلاله عنه وانه لم يعد في قبضة يده كغيره من الاولاد الصغار وعلم أن وراء هذا الغضب كره لا محبة

أدرك جودفرى ذلك كله على رغم حداثة سنه فقال :

ـ حسن يا والدى سأذهب فان ذلك خير من البقاء هنا للشقاق والنزاع

ـ هذا ما أيقنته بعد سفر صديقتك اليصابات التى أفسدت أخلاقك بتأثيرها السيء . وهى الآن فى بلاد المكسيك وقد ألقتك فى زوايا النسيان . انك لا تستطيع أن تجرى وراء أموالها كما جريت وراء أموال مس اجليفي .

فقال جودفرى

ـ أنك تسيء الى فاننى لم أجر وراء أموال مس اجليفى ولن أصفح عنك لما نسبته الى فيما يتعلق باليصابات

ثم تحول وغادر الغرفة وكذا حذا المستر نيت حذوه ودخل الى غرفة مطالعته وقفلها وراءه بالقفل

بحث جودفرى عن مس بارسن وأبلغها الامر فاضربت وبكت ثم قالت :

ـ يخيل الى ياسيدى أن قلب أبيك من الحجر الصلد . لقد عدت الينا شابا جميل الخلقة يود كل رجل أن يتبناك ومع ذلك ترى أباك يقفل الباب فى وجهك لالذنب الا أنك لاتريد مطاوعته على هواه ولانك أصبت مبلغاً من المال . يحزنني ماجرى ولكن يسرنى من جهة أخرى مفارقتك لهذا المنزل حيث لاشبح فيه للعطف والحب

فتنهد جودفرى وقال

ـ أظن ذلك

ـ وأظن ذلك أيضاً فيما يتعلق بى . اصغ الى ياولدى . لقد احتملت خدمة تلاميذ المدرسة هنا على أمل رحوعك ولكن بما أنك عولت على الرحيل فسأترك أنا الاخري خدمة أبيك

ـ ولكن كيف تعيشين يا أماه الى أن أستطيع مساعدتك؟

ـ لقد أعددت للايام عدتها ياولدى فادخرت خمسمائة جنيه

وفوق ذلك مات أخي فى العام الماضي وترك لى منزلا صغيراً جميلا فى « همبستد » مفروشاً بأثاث جميل . وقد أجرته بأثاثه ولكن المستأجر سيغادره ولذا عولت على الانتقال الى هناك وسأؤجر جانباً منه

فقال جودفرى بابتهاج :

ـ ان هذا رأس مال عظيم !

ـ نعم . والآن اصغ الى . ربما تنوي المقام فى لندن مدة وجيزة فاذا كان الأمر كذلك فاطلب اليك أن تنزل لدى وسأكتب لك عنوان المنزل وعليك أن تكتب الى بما تنوى عمله . أري انك قد تحتاج الى نقود حتى تسوى أمرك مع الاوصياء ؟

— لعمرى قد نسيت ذلك . وليس معى غير عشرة شلنات وهى لا تكفى لمن يريد السفر الى لندن .

— هذا ما ظننته

ثم قامت وفتحت دولابا فى غرفتها أخرجت منه صندوقا صغيراً فتحته فاذا به مبلغ من النقود الذهبية والفضية وبعض الاوراق المالية ثم قالت :

— خذ يا عزيزى ماتريد ورده متى أردت

فابتهج جودفري وقال :

— اعطيني ماشئت

فناولته حوالة مالية بخمسة جنيهات وقالت :

— خذ هذه الآن واذا ما أنفقتها أرسل فى طلب ماتريد .
انك تستطيع لحاق آخر قطار الآن وأرجو أن ألحق القطار نفسه غداً لانني أود أن أسمع منك ما شاهدته فى سويسرا ..... الآن الى الملتقى ياعزيزى ولتكن فى حماية الله

فقبلها وقبلته ثم تناول عصاه وعاد الى المحطة حيث أخذ أمتعته وسافر الي لندن فنزل فى أحد فنادقها ثم أكل ونام نوماً عميقاً

فى صباح اليوم التالى جلس جودفرى فى غرفة الطعام بالفندق على منضدة صغيرة وأخذ يفكر فيما يفعل بعد ذلك . وكان فى جيبه مذكرة كتب فيها عنوان المحامى الذى كتب اليه عن التركة التى ورثها فقام وسأل عن المكان حتى عثر عليه

دخل جودفرى مكتب المحامي وكان اسمه المستر رانسون وقدم بطاقته الي احد الكتبة فاجابه أن المستر رانسون مشغول ثم رافقه الى غرفة صغيرة قذرة فجلس جودفرى وأخذ ينتظر وفيما هو ينتظر سمع جلبة خارج الغرفة ثم فتح الباب ودخل رجل غليظ الجسم أحمر الوجه في نحو الستين من عمره . ثم صاح مخاطباً جودفرى

— اننا شهداء فى هذا العالم ياسيدى . انى جئت اليوم الى هنا لامر يتعلق بشخص لا أهمية له لم آره ولا أريد أن اراه لان هيلانه اجليني ابنة عمى اختارتنى وصياً على الاموال التى تركتها

لهذا الصعلوك . وليت الامر قد وقف عند هـذا الحد فان لهذا الصعلوك أباً — وهو أسقف على ما أظن — يكتب رسـائل شديدة اللهجة لا يتصورها العقل . وقد تلقيت منه اليوم خطاباً يتهم فيه ابنه بأمور غامضة ويتهمنى والمحامي الذى يتعمد الآن اعاقتى عن اعمالى فلعن الله رانسون ولعن الاسقف وهيلانه — كلا . أنها ماتت — ولعنة الله على الصعلوك . ألا تقرنى على ذلك ياسيدى ؟

فقال جودفرى

— كلا . ياسيدى لاأقرك على كل شيء قلته . لايهمني المستر رانسون ولا أى شخص آخر ولكنى لاأرى السبب الذى يحملك على لعنتى وفوق ذلك لم أتعمد أغضابك بأى حال من الاحوال

فصاح الرجل قائلا

— أنت ! ومن أنت ؟

— أنا جودفرى نيت وأظن أنك الوصى أو أحد الاوصياء

— جودفرى نيت الذى يكبدنا أبوه من المشاق ماتنوء من حمله الجبال . حسن . يسرني رؤيتك تعال الى النور لأتفرس فى وجهك

فخطا جودفرى خطوة الى الامام وأخذ الشيخ ينظر اليه من الرأس الى القدم ثم قال

— انك شاب جميل قوى الجسم فلماذا لاتلتحق بالجيش ؟

فقال جودفرى

ـ لم أفكر فى هذا الامر ياسيدى . هل أنت فى الجيش ؟

ـ كلا . لست من رجاله الآن ولو اننى كنت فيما مضى . لقد توليت قيادة فرقتى خمس سنوات ثم تركت الخدمة بعدأن حصلت على رتبة قائممقام . ان اسمى كوبيتى . اجلس الآن واخبرنى عن تاريخ حياتك

أذعن الشاب لأمره وأخذ يقص عليه المهم من تاريخ حياته ومنه الاسباب التى دعت الى وجوده هنا

فقال القائد

ـ انك لاتريدأن تكون اسقفا كأبيك وخيراً فعلت . عليك الآن أن ترسم لنفسك طريق الحياة وسنشد أزرك ... ماذا ترى فى الالتحاق بالجيش ؟

ـ إننى أفضل هذا الرأى . فقط أريد مغادرة انكلترا فى أقرب وقت

ـ حسن . ليس فى ذلك كبير مشقة فامامك الهند . إننى ضابط فى فرقة الفرسان بالجيش الهندى . وسأساعدك على بلوغ هذه الأمنية اذا أظهرت ميلا الى ذلك وهو ما أتوقعه . ولكن عليك بالطبع أن تمضي امتحان القبول وغير ذلك . فهل أنت مستعد لذلك ؟

ـ نعم ياسيدى بعد استعداد بسيط

ـ حسن . انك اذا قضيت ثلاثة أشهر في مدرسة المستر سكونز

حصلت على ما يؤهلك للأنضمام الى الجيش . أظن انك فى حاجة الى نقود الآن ؟

فقال جودفرى

ـ نعم ليس معى غير مبلغ يسير اقترضته من مربيتى

جاء الكاتب اذ ذاك وقال ان المستر نسون متأهب لمقابلتهما فذهبا اليه وانتهى الامر بان يدفع الوصي مصاريف المدرسة ثم أعطى جودفرى عشرين جنيهاً وكتب خطاب توصية الى المستر سكونز وبعد ذلك سار الجنرال كوبيتى بعد أن أبلغ جودفرى أن يأتى الي منزله في كنجزتون ليتعشي معه بعد ليلتين وليبلغه ما جرى

وهكذا لم تمض ساعة واحدة حتى تقرر مستقبل جودفرى

خرج الشاب مبتهج القلب وذهب الى المستر سكونز فتناول منه الخطاب وألقى عليه بعض أسئلة ثم قال

ـ إن معلوماتك مختلفة وهي ليست من المعلومات التى تأهلك للالتحاق بالجيش ومع ذلك أراك واسع العقل لك إلمام باللغة الفرنسوية والآداب اللاتينية وستتمكن من بلوغ غايتك بعد ثلاثة شهور هذا اذا أظهرت جداً ونشاطاً . ان المدرسة تفتح أبوابها يوم الاثنين التالى وأكتب الى الجنرال كوبيتى وأبلغه رأيى فيك وان المصاريف تدفع مقدماً . الآن الى الملتقى ولا تنس أن تحضر فى الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين

عاد جودفرى بعد ذلك الفندق وكتب خطابا الى أبيه أبلغه فيه بكل ما جرى وبعد ما ألقاه فى صندوق الخطابات عادواستقر رأيه حتى يبحث عن مكان آخر لـكثرة النفقات فى الفندق .على انه ما كاديستقر على هذا الرأى حتى تلقى تلغرافاً من مسز بارسن تنبئه فيه بانتظارها فى الساعة الرابعة

ذهب جودفرى فى الميعاد المعين الي المحطة حيث قابل مربيته فعانقته وأبلغته ما وقع من الفراغ بينهما وبين أبيه بعد سفره ثم قالت :

ـ ها أناذا قد بدأت حياتى من جديد مثلك والآن اخبرني ماذا عولت عليه ؟

فأخبرها جودفري بما جرى فابتهجت السيدة وقالت :

ـ إن الالتحاق بالجيش شرف عظيم وكن واثقاً بأنك ستنال نصيباً عظيما فى الحياة . سأذهب الآن الى المنزل فى « همبستد » وسأكون فى انتظارك عند ظهر الغد حيث أكون قد فرغت من تهيئة المنزل

سارت مسز بارسون وفى اليوم التالي تبعها جودفرى مع أمتعته الي « همبستد » فوجد المنزل بديعاً مشيداً فوق رابية صغيرة ووجد مربيته فى انتظاره ففتحت اليه ذراعيها وقالت :

ـ ها قد أتيت ياسيدى في وقت بدأت أشعر فيه بملل من قلة الشغل . ان الا نسان كثيراً ما يقوم بضجة عظيمة على أمور

تافهة قبل أن يلقاها فاذا ماوجدهاالقاهافقاقيع اذ نفخها انفجرت

ثم أشارت الى غرفة الاستقبال وقالت

ـ ان الغرفة أنيقة . بخلاف ما كنت أظن

ثم رافقته وأخذا يتجولان فى انحاء المنزل فأرته غرفة المطالعة وغرفة نومه والغرف الأخرى والحديقة وبعد فراغهما قدمت اليه طعاما فاخراً وقامت هى بخدمته

وقصارى القول وجد جودفرى سعادة وراحة عظيمين فلم يسعه الا أن عجب لماذا يجد الشقاء فى بيته والسعادة فى الخارج ؟

الفصل الثالث عشر

«جودفرى والمستقبل»

تلقى جودفرى بعد أيام قليلة الرد على خطابه الذى أرسله الى أبيه وكان في هذه المرة أشد لهجة من الرسائل السابقة وكان في المستر نيت على ما يظهر من محبي السلام الذين يكرهون الحروب فلما انبأه جودفرى بعزمه على الانضمام الى الجيش ثار غضبه ووقع عليه الخبر وقوع الصاعقة . ولم يخف آلامه هذه فى رسالته اذ قال : « أما وقد عولت على أن تحمل السيف فستموت به . اعلم ان الله غيور وسوف ينتقم منك لنبذك اياه وتركك خدمته» وفى النهاية سب المستر نيت مسز بارسن ورماها بالخيانة لأنها غادرته بعد تلك السنين الطوال

لم يرسل جودفرى الى أبيه الرد على هذه الرسالة وكذا لم يراسله أبوه مدة طويلة

دخل جودفرى يوم الاثنين المدرسة تحت مراقبة المستر سكوزوبدأ الدراسة بجد ونشاط بحيث لم تمض ثلاثة شهور حتى مضى الامتحان ودخل ساندهرست (الكلية الحربية) مع صديق

له اسمه ارثر نوربورن كان يعيش مع عمة له فى لندن . وكان ارثر هـذا يريد الالتحاق بالقسم السياسى ليوظف في الهند من قبل وزارة الخارجية فاغراه جودفرى علي الانضمام الى الجيش وفعلا انتهى الأمر بذلك وانضم الشابان الى سلك الكلية الحربية حيث بقيا رفيقين الى أن تخرجا معاً ونشرت الغازيت الرسمية اسميهما والتحقا بفرقة واحدة من فرق الفرسان فى الجيش الهندى . وكان الفرق بينهما ان جودفرى كان متقدما على زميله وفاز فوزاً باهراً

فى خـلال هذين العامين لم ير جودفرى أباه ولم يراسله الا قليلا . وكان يقضى عطلة الشتاء فى منزل مسز بارسن فى " همبستد "، وفى الصيف كان يقوم مع صديقه ارثر وبعض زملائهما برحلات الى أوربا لدرس ساحات القتال المختلفة وتثقيف عقولهم . وفى العيد كانا يذهبان الى اسكتلندا حيث كان لارثر بعض ممتلكات لتبديل الهواء وصيد الاسماك وقصارى القول قضى جودفرى العامين فى ابتهاج وسعادة

وكان جودفرى موضع احترام زملائه لاسيما صديقه أرثر الذى كان يرى فيه الصديق الوفى والقدوة الحسـنة . وراد فى احترامهم إياه ماكان يظهره من الدعة والاخلاق المرضية . وفى الواقع كان جودفرى شاباً مقداماً لا يعتمد الا على نفسه يعرف كيف يستخدم مواهبه

تلقى جودفرى فى النهاية خطاباً من أبيه يختلف اختلافاً تاماً

عن الرسائل السابقه . وكان بداخله قصاصة من جريدة روت خبر نجاحه ولفائدة قرائها نشرت حادثة الالب ثم ذكرت لمحة من تاريخ حياته فذكرت اسم أبيه وانه هو الذى تولى تربيته وتعليمه وقد ختم المستر نيت خطابه بما يلى :

« لم تتقابل منذ مدة طويلة لأسباب لا أريد ذكرها وأظن انك ستغادر انكلترا الى الهند عما قريب فأريد مشاهدتك قبل سفرك . وليس فى طلبي هـذا ما يدعو الى العجب لانك ولدى الوحيد وقد بلغت من الكبر عتياً وأخشى اذا ماسافرت الى تلك البلاد النائية أن لا نلتقى مرة أخرى

وكان جودفرى كريم الاخلاق رقيق العواطف فتأثر من قول أبيه وكتب اليه فى الحال انه سيأتى فى أوائل الاسبوع الى «دير الراهب » حيث يقضي شطرا من اجازته وهكذا لما حان الوقت ذهب الى هناك

***

شاءت الاقدار أن يعود شخص آخر له علاقة كبرى بقصتنا هذه الى اسكس في الوقت عينه وكان هذا الشخص هو اليصابات بلاك

ذهبت اليصابات الى المكسيك مع خالها حيث قضت مدة تمتعت فيها بضروب السعادة فدرست تاريخ الازتيك ـ اسم القبيلة التى كانت تقطن بلاد المكسيك قبل الاسبان ـ وأجادته بحيث صارت من المتضلعين فيه وتعلمت اللغة الاسبانية وزارت كثيراً

من آثار البلاد ومنها « بوكتان » ورأت رفاة الذين كانوا يقطنون البلاد قبل قبائل الازتيك . وقد كانت نتيجة هذه الزيارة أن أصيبت اليصابات بحمى أثرت فى جسمها . وكانت الفتاة لا تعول الا على الماديات فلا تعتقد الا بما تراه وما تعرفه وما تكتسبه من تجاربها فى الحياة وعدا ذلك كان كل شيء آخر وهم وبطلان . وكانت تضع قدمها دائما فوق أرض الحقيقة الثابتة وتدع كل شيء آخر لاصحاب الاحلام والاوهام أو ـ كما كانت تقول هى ـ لضحايا الخرافات المكتسبة أو الموروثة

بيد أنه أصابها أثناء مرضها ما غير اعتقادها هذا فقد أحست فجأة وقد بلغ المرض ابانه ـ بأن المادة التى نسجتها الطبيعة حولها قد تلاشت والفت نفسها تسبح كبعوضة فى الجو وحولها بحر لا تستطيع ادراك كنهه . ثم زعمت أنها جزء من الكون فان الكون يتمثل فيها بصورة صغيرة

لم تذهب اليصابات فى تصوراتها هذه الى أبعد من ذلك . ولما أفاقت عزت ذلك كله الى الاوهام أو الخيالات التى تصحب الحمى عادة ولكن على رغم ذلك تأثرت بسبب ما رأته

وفيما عدا ذلك كانت الحياة فى مدينة المكسيك طيبة لا سيما اذا راعينا أنها كانت ابنة أخت المعتمد البريطانى فكانت تدعى عادة الي الاحتفالات الرسمية مع خالها فكانت تجتمع بالمندوبين السياسيين وكبار رجال المكسيك وغيرهم من كبار الاميركيين

واتفق أن رجلا من أصحاب الملايين فى أمـيركا أحب اليصابات فخطبها لنفسه وكان شاباً جميل الخلقة من سـلالة عريقة فى المجد ولـكنها رفضت وأعلنت ذلك بصريح العبارة بحيث لم يسع الشاب الا أن غارر مدينة المـكسيك فى صالونه الخاص

وفي يوم سفره تلقت اليصابات منه خطابا قال فيه

« لقد فقدتك . ولما كنت حزين القلب بحيث لا أستطيع المقام فى هـذه البلاد العتيقة لاتمم أعمالى التى جاءت بي الى هنا أقول انني فقدت أيضاً ٢٥٠ الف ريال. على اننى قد تنازلت عن هذا المبلغ لشرف صداقتك ... الى المالتقى . ليباركك الله وليبارك من تحبينه لانى واثق من انك تحبين شخصاًما وان هذا الشخص لابد أن يكون دمث الاخلاق رقيق العواطف »

رأت اليصابات أن هـذا الشاب يتهمها بحب شخص ما وهو محض هذيان وعجبت اذ كانت تعلم أنها لم تلق رجلا شعرت نحوه بمثل هذه العاطفة . كلا . ولو كان سيجعلها ملـكة أو يغدق عليها أموال العالم . بل كانت تمقت مثل هؤلاء الرجال وتعافهم وتعتقد أن اقترانها بأى رجل منهم لا يتفق مع طبيعتها روحاً وجسما

نعم كان هناك صبي معين ـ ولـكنه ذهب من مجرى حياتها منذ أعوام طويلة وفوق ذلك أغضبها اذ رفض الاجابة على رسالة أرسلتها اليه لانها توهمت أنه قاطعها بسبب غيرة لامبرر لها . وقد

قرأت فوق ذلك فى الصحف عن عمل ينطوى على الاقدام والشجاعة قام به هذا الصبي فى جبال الألب فابتهجت به لانه كان يتعلق برفيق صباها ولكنها علمت أن الشخص الذى أنقذه كان فتاة فوجدت فى ذلك تفسيراً لما كان قد التبس عليها وعلمت السبب الذى لاجله لم يرد على خطابها

على أنها لم تسمع شيئاً بعد ذلك عن هذه الفتاة ولو أنها كانت تقف من حين الى آخر على نتف من أخبار جودفرى . فقد سمعت مثلا أنه تخاصم مع أبيه لانه رفض الانضمام الى الكنيسة وذهب الى الجيش وهو مااستصوبته لاسيما أنها كانت لاتعتقد بالاديان ولم تدر كيف يكون مظهره اذا ما ارتدى لباس الأساقفة .

على أنها لم تدر من جهة أخرى كيف صار شكله الآن وكانت لديها صورة فتوغرافية قديمة وهو لايزال صبياً صغيراً ولكنه صار الآن غيره فيما مضي اذ لابد أن يكون قد كبر وترعرع كما كبرت هى وترعرعت

جالت هذه الافكار فى عقل اليصابات وفى النهاية قالت أن ما رماها به الشاب الاميركى هو من عادة الشبان مع الفتيات

زارت اليصابات بعد ذلك المتحف لآخر مرة وكان يهمها أكثر من أى مكان آخر في بلاد المكسيك وربما كان السبب فى ذلك أن ما كانت تراه في المتحف كان يقوى اعتقاداتها فى

مقارنة الاديان وأخيراً نفضت نعليها مما علق بهما من غبار بلاد المكسيك

ركبت اليصابات ظهر الباخرة من « فيرا كروز » وألقت آخر نظرة على الثلوج التى كانت تغشى أ كمة « أريزابا » الى أن توارت وراء الافق

***

عادت اليصابات الى انكلترا بطريق جزر الهند الشرقية مع خالها الذى جاء الي انكلترا باجازة قبل تعيينه معتمداً في احدى جمهوريات جنوب أميركا . وقد قابلها أبوها بمظاهر الترحيب وكان قد نسى ما وقع بينهما من النزاع أو على كل حال صمم على أن يتجاهله وكذا فعلت اليصابات التى بلغت الآن سن الرشد وصارت فتاة كاملة . وهكذا قابل كل منهما الآخر بمظاهر الود وقضيا معاً مدة فى وئام ظاهرى وقد أدرك كل منهما أن له أن يسير فى الطريق التى رسمها لنفسه دون أن يتعرض أحدهما للآخر

الفصل الرابع عشر

« اللقاء »

شعر جودفرى بعد ظهر اليوم الذى وصل فيه الى المنزل بقوة تجذبه الى الكنيسة فدخلها ثم سار الى الفناء ووقف يتأمل فى تمثال السيدة التى لم يذكر اسمها والمدة البعيدة التى مضت منذ وقف موقفه هذا في آخر مرة . واذ ذاك تذكر وقلبه يتألم ان اليصابات كانت معه وانها كانت واقفة الى جانبه أما الآن فهى بعيدة عنه روحاً وجسما لانه لم يسمع بعودتها الى انكلترا وكان يزعم أنها لاتزال فى بلاد المكسيك حيث لم يسمع من أنبائها شيئاً

وقف جودفرى بين الاموات وهو يقول فى نفسه أن معرفة الموت لاتكون حتما بمفارقة الروح للجسد لان هناك كما قالت اليصابات فراقا وهجراناً كالموت أو أمر . ان الاموات قد انتهت قصتهم وطويت سجلاتهم ولم يعد هناك شيء يعرف عنهم أوداع للغيرة منهم بعد أن انتقلوا الى عالم آخر . ولكن الامر غير ذلك فيما يتعلق بالاحياء اذ مادامت حياتهم باقية حصلوا على أصدقاء وتعارفوا وتآلفوا وساروا فى سبيل الحياة

وقف جودفرى على هذه الحال وهو يحاول أن يتمثل صورة اليصابات يوم كانت واقفة الى جانبه في المكان نفسه ولكن مخيلته لم تمثل له غير صورتها وهى تقبل الوردة مع الفارس فى الحديقة فى لندن . ولا عجب فان هذه الصورة المؤلمة هي التى بقيت فى مخيلته واضحة جلية وبعد ذلك غرق جودفرى في أفكار أخرى تتعلق بلغز الحياة العام

كان جودفري سابحاً فى أوهامه وتصوراته بحيث لم يشعر بدخول فتاة طويلة ترتدي ثوباً أبيض الى الكنيسة ولا عند ما صارت منه على مسافة خمس خطوات وقد عرفته وأخذت تنعم فيه النظر بأعظم اهتمام

عرفته اليصابات فى طرفة عين ولو أنه صار شاباً ممتلئ الجسم جميل الوجه فقالت في نفسها

ـ ياإلهى ! ان شكله تغير . ان شكله تغير !

صار الصبي الصغير رجلا !

علمت اليصابات فى الحال بغريزتها النسائية أن جودفرى صار رجلا عبير الامانى والمطامع . ولا عجب فان اليصابات كانت تتمتع بقوة استنباط غريبة وفوق ذلك كانت قد وقفت الآن على جانب كظيم من أحوال العالم .ولم تك اليصابات تطمع برجل من الابطال العظام أو قديس بل كانت تريد رجلا مجرداً من العيوب الكبيرة كالغيبة والنميمة وغير ذلك من الصفات الوضيعة

أدركت اليصابات عند أول نظرة القتها على جودفرى انههو الرجل الذى تنشده وقالت اذا كان قد اعجب بغيرها من الفتيات كالفتاة التي أنقذها فى جبال الالب مثلا — فان ذلك لا يضيرها ما دامت هى (اليصابات) موضع اعجابه ولها المكان الاول من قلبه وهو كل ما تريده

قالت اليصابات فى نفسها

— ترى بماذا يفكر ؟ وما هو الدليل على انه يهتم بي أقل اهتمام ؟ لا شئ مطلقاً . ولكن لماذا جاء الى هذا المكان حيث افترقنا منذ مدة بعيدة؟ لا ريب في أنه لم يأت ليطيل النظر الى قبور أموات غادروا العالم منذ أجيال . ثم سؤال آخر . ماذا جاء بي الى هذا المكان مع شدة كرهي للكنائس وما تشير اليه ؟

هلا يستيقظ من سباته ؟ هلا يدرك وجودى ؟ آه . قد لا يهتم بي . انه يفكر على ما يظهر بتلك الفتاة الى أنقذهامن الموت في جبال الالب . ولكن لماذا جاء الى هذا المكان ليفكر بها ؟

وقفت اليصابات جامدة فى مكانها وانتظرت في ظل قبر من القبور الى أن شعر جودفرى على ما يظهر أنه ليس وحيداً فأخذ يجول بعينية فيما حوله — ولكنه لم ير اليصابات — الي أن اعتقد ان ما شعر به محض أوهام . وأخيراً خاطب نفسه بصوت عال قائلا

— ياله من أمر غريب مدهش ! فى استطاعتي أن أقسم بان اليصابات هنا وانها قريبة منى كما كانت يوم افترقنا . أظن ان هذا

نتيجة كثرة التفكير بها . ترى هل يخلف الناس وراءهم شيئاً منهم فى الأماكن التى اتقدت فيها جذوة عواطفهم ؟ لعمرى لست كاذباً فقط لا يدرك ذلك الا الذين اشتركوا فى هذه العواطف . يا إلهي لايزال فى استطاعتي أن أقسم بأن اليصابات هنا . انى أشعر بوجودها معى فاللهم لا تجعلنى أستيقظ من هذا الحلم اللذيذ !

سمعت اليصابات وهى متوارية فى ظل القبر كلامه ووعت ماقال فاحمر وجهها خجلا وابتهج قلبها . ولا عجب فقد أيقنت انه لم ينسها على رغم شكوكها وارتيابها وعلمت انها لاتزال ركناً فى حياته — ولو أنه لم يجبها على خطابها الذى أرسلته اليه منذ أعوام

غضبت اليصابات وثارت فى نفسها عوامل السخط قائلة :

ـ ماذا يعنينى به أو بأفكاره ؟ من الحماقة ان اعتمد على غير نفسى وعلى ما وهبنى الله من الروح القوية

حنقت اليصابات على جودفرى . ولكن ترى لماذا ؟ غضبت لانه أثار القلاقل والاضطرابات فى نفسها أوفى جسمها ؟ كلا . ليست هناك نفس أو روح وكل هذه خرافات وأوهام . اذن أثار جودفرى القلاقل فى جسمها وهو متاعها الوحيد الذى يجب أن لايكون لاحد عليه من سلطان . ولذا كان أول حديثها معه ينطوى على الغلظة والشدة

تقدمت اليصابات نحوه وخرجت من مكانها ثم واجهته بدون اهتمام وبأنفه وقالت

ـ أرجو أن تكون هذه آخر مرة تخاطب فيها نفسك يا جودفرى بعد أن حذرتك هذه العادة القبيحة . لم أسمع كثيراً من كلامك ولكني فهمت انك تقول انني هنا . حسن . لماذا لا أكون هنا؟

فظر جودفرى اليها وهو مبهوت وقال

ـ الله أعلم . أما أنا فلا أدرى شيئاً ! ولكن اخبريني لماذا أتيت الى هنا يا اليصابات ؟ هل أنت اليصابات ؟ أو هل لا زلت غارقا فى أحلامي ؟ دعيني أمسك بيدي حتى أثق انك أنت

فارتدت الفتاة الى الوراء خطوة قصيرة ثم قالت

ـ بالطبع أنا اليصابات . الا تدلك حواسك على ذلك دون أن تمسني ؟ انى عرفتك عند ما خطوت أول خطوة فى الكنيسة . تسألني لماذا أتيت الى هنا ؟ حسن . كنت مارة فجذبني شيء الى هذا المكان . أظن انه أنت واذا كان الامر كذلك أقول فى الحال إنى مستاءة وليس لك حق . . .

فقاطعها جودفرى قائلا

ـ كلا . كلا . بالطبع . ولكن دعيني أمسك بيدى حتى أثق انك أنت اليصابات دون سواك

فمدت الفتاة يدها نحوه ثم قالت

ـ حسن . ها هى يدى اذا شئت

فامسكها بيده اليسرى وكانت قريبة منها ثم تقدم اليها وامسك يدها الاخرى ثم جذبها نحوه دون أن تبدى مقاومة ثم ظنت

انه سيقبلها فعولت على ان لا تعارضه

على أنه كبح جماح شعوره وبدلا من أن يضع شفتيه على شفتيها أخذ يقبل يديها الواحدة تلو الأخرى مدة طويلة فلم تحاول الابتعاد عنه وبالعكس استولت عليها عاطفة قوية حملتها على تقبيل يده أو ثغره أو ردائه

ثار غضب اليصابات . ولكن هكذا كان بعد أن داهمتها قوة لم تشعر بها من قبل — شئ جنونى قاس لذيذ .

ابتعدت اليصابات عنه فى النهاية ثم بدأت تعنفه مرة أخرى فقالت

ـ ماذا فعلت فى كل هذه السنين الطويلة ؟ ولماذا لم تكتب الىّ حرفاً واحداً ؟

ـ لأنه عز على أن لا تكتبي الى كلمة واحدة

ـ الاتدري أن الكبرياء قد يقضى على الانسان ويورده الهلاك ؟ انه نذير السقوط والفشل . وفوق ذلك كتبت اليك وفى استطاعتي ان أطلعك على صورة الخطاب اذا كانت لاتزال لدى

ـ لم تصلنى كلمة واحدة منك ؟ هل القيته فى صندوق البريد بنفسك ؟

ـ نعم . أعنى أخذته الى منزلك وتركته هناك ليعنون باسمك ثم يرسل اليك

ـ آه . ربما لايزال هناك الى الآن

ثم نظر اليها نظرة ذات معنى فصاحت قائلة

ـ محض هذيان. أن السفالة لا تبلغ بأحد الى هذا الحد حتي ولا ...

فهز جودفري كتفيه ثم قال

ـ ليس فى الأمر أهمية الآن . أليس كذلك ؟

ـ كلا . ان الامر يهمني كثيراً . لقد مضت أعوام طويلة انقضت في سوء التفاهم والشكوك والبعاد والحياة قصيرة . ربما كنت تزوجت أو حدثت أمور أخري

فقال جودفري بدهشة

ـ ما علاقة عدم استلامي خطابك بذلك ؟

ـ لاشيء مطلقا . لماذا تلقى هــذه الاسئلة ؟ إنما أردت أن أقول انى لو كنت قد تزوجت ما قابلتك اليوم هنا ولا في أى مكان آخر

ـ ها قد جئت الى هنا وقد التقينا حيث افترقنا

ـ نعم انه شيء غريب ياجودفرى . كنت أود أن يكون لقاؤنا في مكان آخر لان نفسى تعاف هذا المكان الموحش الذى يظلل عليه جناح الموت . هيا بنا الى الخارج

خرج الاثنان ولما اجتازا أبواب الكنيسة الخارجية سارا نحو مجرى المياه الذى يخترق « هوك هول » وهناك جلسا فوق جذع شجرة من أشجار الصفصاف وأخذا يراقبان الطيور وهي تحلق فوق سطح المياه . وهكذا قضيا مدة في سكون تام. ولا

عجب فقد كان لديهما شئ كثير بحيث لم يعرف أحدهما بماذا يبدأ الكلام

أخيراً قالت اليصابات

ـ أخبرني هل كنت في حديقة الميدان في ليلة الرقص ؟ آه أرى من أسارير وجهك انك كنت هناك . اذن لماذا لم تخاطبني بدلا من أن تختبئ وراء الشجيرة تتجسس علينا بهذه الطريقة المنحطة ؟

ـ لم أكن أرتدي وقتئذ ثياب الحفلات . . . والظاهر انك كنت . . . منهمكة كثيراً ... مع شاب في لباس فارس ومعكما وردة

ـ منهمكة ! كان هذا جزءا من أعمال الحفلة. وقد كتبت اليك كل شئ يتعلق بذلك في الخطاب الذي لم يصلك . ألم تقبل زهرة وتعطها لشخص آخر أثناء لعبكما وأنت لا تدري أن أحداً يراقبكما ؟

احمر وجه جودفري وتململ في مكانه عند سماع هذا السؤال ثم قال بعد هنيهة

ـ يدهشني قولك هذا فقد حدث شئ من هذا القبيل مرة وكان هناك أيضا اناس يراقبونني

ـ تقول يراقبونك ... قل يراقبونكما . ان الانسان لا يقبل زهرة ثم يعطيها للهواء ان قولك هذا يدعو الى السخرية أكثر من الامر الاول

فتلجلج جودفري قليلا ثم قال

ـ سأقص عليك كل شئ اذا شئت

فحدقت فى وجهه بعينيها الزرقاوين الواسعتين وقالت بلهجة باردة

ـ كلا . أشكرك . لا أريد ذلك . لاشئ يؤلمنى أكثر من حوادث الناس التافهة الخاصة بالغرام

وجد جودفرى ان سلاح الدفاع قد انكسر فعول على استخدام سلاح الهجوم فقال

ـ ماذا أصاب الفارس الذى كان يرتدى الدرع ؟

ـ تزوج وولد له توأمان . هذا ما قرأته فى الصحف أمس . الآن اخبرنى ماذا أصاب السيدة صاحبة الزهرة ؟ لانه اذا كانت هناك زهرة لابد أن تكون هناك سيدة . أظن أنها هى السيدة نفسها التى انقذتها في جبال الالب

فقال جودفرى

ـ انها تزوجت بابن عمها ولكن لا أعلم هل ولدت أطفالا . لم أنقذها من خطر داهمها فى جبال الالب ولكن الذى انقذنه رجل ثقيل الجسم

فصاحت اليصابات صيحة تنم على الفرح والارتياح ثم قالت بلهجة أخرى

ـ الآن اخبرني ياجودفرى عن كل شئ يتعلق بك . لابد أن يكون هناك شئ كثير يهمني سماعه

فأخذ جودفرى يقص عليها ماجرى له ولما فرغ قصت هى

أيضا عليه ما أصابها وهكذا أخذا يتحدثان الى أن خيم عليهما الظلام فنظر جودفرى الى ساعته فجأة ثم لم يلبث ان صاح قائلا

ـ ياالهى ! اننا الآن فى منتصف الساعة الثامنة

ـ حسن . وماذا يكون : لايهمنى متى أتناول عشائى لاننى جئت الى هنا وحدى لاقضى نحو أسبوع فى تهيئة المنزل لأبى وأصدقائه

ـ نعم ولـكن والدى يتناول عشاءه في الساعة السابعة وهو يكره الانتظار على الطعام

لم تـكترث اليصابات لقوله هذا ولم تبد اهتماماً سواء انتظر المستر نيت أولم ينتظر ثم قالت

ـ هللك فى القدوم لتتعشي معى ؟

ـ أظن اننى لا أستطيع . لانك تعلمين اننى أريد ان اتجنب خصام أبى . ولا أخالك تجهلين انه يغضب اذا علم اننى ذهبت معك

ـ هل تعني ياجودفرى انه يكره عشاءك معى ؟ حسن . هذا صحيح لانه يعافنى دائماً كالسم وعلى ذلك خيرلك ان تذهب . هل تعدنى بمقابلتك غداً ؟

ـ بالطبـع . سنتقابل هنا فى الساعة الحادية عشر . سيذهب أبي الى مؤتمر من الاساقفة غداً ولا يعود الا في المساء . وعليه في استطاعتنا ان نقضى النهار معاً اذا لم يكن لديك ما تفضيلنه على ذلك

ـ كلا . ليس لدى شيء من الأعمال غداً

قام الاثنان فى النهاية ووقف كل منهما أمام الآخر وأخذ ينظر الى رفيقه دون أن ينطق بكلمة

أخيراً قال جودفرى فجأة وهو ينظر الى رفيقة صباه نظرة حب واعجاب

ـ ماأجملك يا اليصابات

فضحكت الفتاة ضحكة قصيرة رقيقة ثم قالت :

ـ ما أجملني ! أنا ؟ ان ثلوج الالب تؤثر فى النظر . أليس كذلك ياجودفرى ؟ كفاك غروراً ولا تكن أحمق

فلم يعر جودفرى قولها اهتماماً وقال بلهجة الاصرار

ـ انك جميلة . بل أجمل فتاة رأيتها في حياتى . انك كنت دائماً جميلة وستكونين دائماً كذلك

ضحكت اليصابات مرة أخرى . ولا عجب اذ من النساء لا تريد أن تسمى جميلة لا سيما اذا كانت تعلم أن المعجب بها يتكلم عن اعتقاد ؟ بيد أن اليصابات أجابته على وله هذا بقولها

ـ تقول انك تأخرت وفى تلكئك هذا تأخير آخر . أجر الى المنزل أيها الصبي الصغير

فقال جودفرى

ـ لماذا تضحكين منى ؟

ـ لأنى أضحك من نفسى ويجب أن تأخذ نصيبك

بعد ذلك قبلها تقريباً لانه كان يريد العودة على عجل وفوق ذلك كان جذع الشجرة الذى جلسا عليه بينهما ولذا لم يستطع الا أن يضغط على يدها ويذهب وهو يدمدم بكلمات لامعنى لها

وقفت اليصابات تراقبه الى أن توارى عن عينيها ثم عادت فجلست على كتلة الخشب وضحكت

كانت هذه الضحكة غريبة غير مألوفة بحيث لم تلبث أن تحولت الى تنهدات ودموع

خاطبت اليصابات نفسها قائلة .

ـ ماذا دهاك أيتها الحمقاء ؟ هل أنت ... هل أنت ... واذا كان الامر كذلك فهل هو . . . ؟ آه محض هذيان ولكن لابد أن يكون هناك شيء قد حدث فانى لم أشعر من قبل بما أشعر به الآن . كنت أزعم انه محض أوهام ... جاذبية طبيعية . جزء من مشروع الطبيعة وغير ذلك ممايدونونه فى كتب الفلسفة ولكنه أكثر من ذلك ... يخيل الى انى أكبر منه سناً ولو أنى ولدت بعده بستة شهور فأنا فتاة ممتلئة الجسم وهو صبى صغير ولو لم يكن كذلك لانتهز فرصته عند ما علم أن ابتهاجى برؤيته ثانية قد سلبنى كل قوة . لقد أضاع الآن فرصته فاذا أراد فرصة أخرى عجز عن الحصول عليها لأنى سأسترد قواى غدا فلا يكون . .

نظرت اليصابات بعد ذلك الى ظهر يديها وكانت لا تستطيع رؤيتهما بسبب الظلام فقبلتهما بدلا من ذلك كالو كانتا يدى شخص آخر

جلست الفتاة بعد ذلك هنيهة وهي تصغي الى خفقان قلبها ودقاته التى اشتدت في هذه الليلة . وفيما هى جالسة علىهذهالحال فى تلك الساعة الغريبة أحست بتغيير عظيم .

جلست اليصابات على جزع الشجرةوهي فتاة ساذجة خالية من العواطف فلما قامت كانت قد صارت فتاة دنفة عاشقة . وقد خيل اليها أن هناك روحاً توحى اليها آيات الحب وتهمس في أذنيها بكلمات واضحة صريحة قائلة

« أن اخضعى لقوانين البشروأحبي بالجسم والروح ، بالقلب والنفس والقوة »

قامت اليصابات فى النهاية وقالت بصوت عال

ـ لعمرى لا أدرى على من أغدق آيات الحمد والثناء لانى شعرت الآن بالحياة والوجود . يسرنى الآن اننى ولدت ، أنا التى كنت دائما ألعن اليوم الذى ولدتنى فيه أمى ويسرني أيضاً اذا قضيت نحبي غدا . اذ علمت الآن ان هناك عاطفة في نفسى لا يمكن أن تموت وقد تولدت هذه العاطفة عند ما قبل ذاك الرجل يدى وستظل باقية الى الابد »

***

تأخر جودفرى عن موعد الطعام كثيراً . والادهى من ذلك ان المستر نيت قضى وقتا طويلا فى انتظاره فلما وصل الشاب حياه ببرود قائلا

ـ أظنك نسيت انى أتعشى فى الساعة السابعة لا الساعة الثامنة ؟

ولما كان جودفرى لم يفق من نشوة الغرام اضطرب قليلا ثم قال

ـ انى آسف جداً ياأبتى . والحقيقة انى قابلت اليصابات وقد طال بيننا حبل الحديث فلم الاحظ الوقت

صاح المسترنيت قائلا .

ـ اليصابات ! أى اليصاباى ؟

ـ لم أعرف غير فتاة واحدة تسمى بهذا الاسم ياأبتى

ـ آه أظن انك تعنى مس بلاك . ليست لدى فكرة انها هنا وفى الواقع كنت أظن انها لا تزال فى بلاد المكسيك . على انك واقف على انبائها أكثر منى

ـ كلا يا أبتى . إنى قابلتها صدفة . لقد عادت الى انكلترا

ـ هذا شيء واضح ياجودفرى . . . .

فقاطعه الشاب وقال بلهجة سريعة

ـ انها جاءت الي انكلترا لترتب المنزل لاستقبال أبيها الذى يصل قريباً

ـ آه أحقا ما تقول ؟ ياله من اتفاق غريب ! ان هـذا من محاسن الصدف . انها كانت بعيدة فى الاعوام الطويلة التى كنت فيها بعيداً فلما عدت عادت على أثرك

فلم يسع جودفرى وقد أحمر وجهه خجلا الا أن يوافقه قائلا

ـ نعم . ان الامر يبدو غريباً . ولكنى لا أنكر عليك يا أبتى انى سررت بلقائها مرة أخرى واعد ذلك من حسن الحظ

وقف المستر نيت عن التهام طعامه ثم القى السكين ونظر الى ابنه وقال

قد نعد لقاءك اياها من حسن الحظ — أو قل من الامور التى أحسن تدبيرها — ولكني أخالفك في هذا الرأى واصرح لك فى الحال انى أعد مس بلاك أعظم فتاة خبيثة . واصفتى والدك لا يسعنى الا أن أعرب لك عن أملى بان لا تسمح لها بأن تبث سمومها في نفسك مرة أخرى

هم جودفرى ان يجيبه على قوله هذا بأشد لهجة ولكنه عدل عن ذلك ولزم الصمت . وقد انتهى الامر عند هذا الحد ولو أن المستر نيت ظل مرتبك الفكر بدليل وجهه المكفهر وعينيه الزائغتين وما كان يظهره من الغلطة فى ملاحظاته التي كان يبديها بشأن الطعام وشئون المنزل . وأخيراً بعد ما فرغ من الطعام وقدم الشكر لله دخل غرفته فلم يره أحد الا فى اليوم التالى

سار جودفرى بعد اختفاء أبيه فى غرفته الى الخارج ومشى وهو لايدرى الى أين تحمله رجلاه نحو منزل السر جون بلاك وهناك وقف ينظر الى النور المنبعث من نافذة اليصابات . وقد بقي على هذه الحال مدة طويلة وهو غارق في بحار أفكاره الى أن نسى نفسه مرة أخرى

عاد الشاب الى المنزل فوجده مظلماً ووجد على الطاولة مذكرة بخط أبيه طلب اليه فيها أن يقفل الباب قائلا ان الجميع ذهبوا الى الفراش

ذهب جودفرى الى فراشه أيضا ولكنه لم ينم . ومن الغريب أن الاضطرابات الجسمانية والعقلية التى تملكت اليصابات فى تلك الليلة تملكت جودفرى كذلك

عجب جودفرى كيف التقى بها مرة أخرى بعد ما قطع كل رجاء بلقائها وكيف انها كبرت ونمت وزادت بهاء وجمالا . ثم عجب كيف قضى كل هذه المدة الطويلة بعيدا عنها وكيف يطيق فراقها مرة أخرى ؟

لم تعره اهتماماً عند ماقبل يديها ولم تغضب بل تركته يقبلهما مدة طويلة ولو انه خيل اليه انها كانت لحظة أو طرفة عين . نعم ربما لم تشأ أن يفترقا أو ربما أرادت أن تقتصر علاقتهما على الصداقة البسيطة كما كانا من قبل ولكن يظهر انه يكاد يكون من المستحيل أن يكونا أكبر من صديقين حتى ولو اهتمت هى أن تفعل ذلك

ولا عجب فقد رأى جودفري نفسه شاباً في العشرين من عمره لايمتلك غير مبلغ يسير أما هى فكانت فتاة عظيمة وارثة لاموال طائلة ينتظر زواجها برجل من الأشراف ولد كما يقولون بملعقة من الفضة في فمه . وفوق ذلك كان أبوه يكرهها لما كان بينهما من المنازعات الدينية فى حين كان أبوها يبغضه لأسباب أخرى .

نعم ان ذلك مستحيل . . . ولكن يظهر أن الطبيعة لا تهتم بشيء من ذلك . والظاهر أنها أبلغته أن ذلك سهل جداً ولا عجب فان الطبيعة متى أرادت فعلت وفوق ذلك يظهر ان هذه الطبيعة المعاندة أبلغته ان اليصابات تلميذتها المطيعة الخاضعة وانه اذا استطاع أن ينظر الى ما بداخل قلبها وجد انها تهتم به أكثر من أى مخلوق فى الوجود

والظاهر ان الطبيعة أوحت اليه أيضاً أن أفكار اليصابات معه فى تلك اللحظة وانها قريبة منه على غير العادة ان لم تكن بالجسم فبالروح وانها تفكر فيه كما يفكر فيها وانها تقول لنفسها مايقول هو لنفسه . وفى الواقع أخذ يخاطبها همساً فى موضوع لم يكن يجرأ على مخاطبتها فيه لو كانت معه وكان يقف ليسمع أجوبتها التى خيل اليه انها مرضية جداً

أخذ جودفري يلقى فى مخيلته عليها الاسئلة وهى تجيبه إلى أن غلب عليه النعاس تدريجياً فنام نوماً عميقاً بحيث لم يستيقظ الا على دق جرس الفطور . ولما نزل وجد الطعام على المنضدة وجد أباه قد ذهب إلى جمعية الاساقفة فأكل ماوجده وما استطاع العثور عليه بشهية ثم صعد ليرتدى بذلة جديدة ويمشط شعره ولما فرغ ذهب إلى المكان المعين قبل الميعاد المضروب فوجد اليصابات فى انتظاره وقد جلست فوق جذع الشجرة المعهودة

قالت اليصابات

ـ ماذا كنت تفعل بنفسك يا جودفري ؟ أراك قد غيرت ملابسك التى كنت ترتديها أمس وليست هـذه البذلة الجميلة . حسن . كنت أفضل أن تبقى ببذلة أمس لانى أريد أن تتسلق إحدي الأشجار لتأتى لى بصغار العصافير ... ويحك ياجودفرى ما هذه الرائحة العطرية التى دهنت بها شعرك ؟

فدمدم جودفرى ببعض كلمات ثم قال

ـ انك ترتدين ثيابا فاخرة كذلك زادتك بهاء وجمالا

فقالت اليصابات

ـ انها قبعتى التى جئت بها معى من بلاد المكسيك وهي مصنوعة كما ترى من خوص بنما المشهور . ثم عقدى وهو مصنوع من تماثيل ذهبية صغيرة تمثل آلهة « الازتيك » وهى نادرة الوجود عثر عليها بعضهم فى قبر عتيق وقد اهـداها اياى رجل اميركي . وقد دهشت عند ماعلمت أن ثمنها مئتا جنيه . هل تدرى شيئاً عن تاريخ آلهـة « الازتيك » ؟ اذا كنت تجهل تاريخهم شرحته لك بالتفصيل . ان هذا الاله الذى فى الوسـط هو « هونزلكوتل » اله . . .

فقاطعها جودفرى قائلا

ـ كلا . كلا . لاأريد أن تذكرى عنها شيئاً . انها آلهة تافهة ولكن كيف قبلت هذه الهدية الثمينة ومن الذى أهداك اياها ؟

فقالت اليصابات بلطف ودلال

ـ انه شاب اميركى من أصحاب الملايين لا يرتدى درعاً كالفرسان

ثم غيرت موضوع الحديث وقالت

ـ أرى الطيور قد علت اليوم فى الجو بخلاف أمس فانه كان يخيل إلى الانسان انه يستطيع امسا كها بيده

فلم يجبها جودفرى وقال فى نفسه ان هناك أموراً أخرى كانت تظهر أمس قريبة المنال فعلت اليوم كالطيور بحيث لم يعد فى الامكان ادرا كها . ثم تعزى بفكرة أخرى وهى أن هذه الطيور مهما خيل إلى الانسان انها قريبة المنال فانها سريعة الافلات من اليد لايمكن صيدها الا وهى نائمة فى أوكارها

أخذت اليصابات بعد ذلك تقص عليه ما تعرفه عن آلهة المكسيك سواء أراد أن يسمع أو لم يرد وقد جلس بجانبها بوجهه المليح وشعره الجميل ولباسه الانيق ينظر اليها إلى أن طلبت اليه أن يحول عنها نظراته لانها تشعر كما لو كانت ستنام نوماً مغنطيسياً

تذكر جودفرى إذ ذاك تجاربه الروحية فقص عليها القصة بحذافيرها ولما فرغ كان قد حان وقت الغداء فذهبا معاً إلى منزل السر جون بلاك

قالت اليصابات عند دخولهما المنزل

ـ ان قصتك هذه لذيذة ياجودفرى ولا استطيع أن أسخر

منها كما كنت أفعل في الماضي ولا أدرى لماذا ولكن أرجو أن تقطع علاقتك بالأرواح بعد الآن

فنظر جودفرى اليها ثم قال :

ـ كلا . طالما هناك . .

ـ طالما هناك ماذا ؟

ـ طالما . . . هناك فتيات حسان مثلك

ثم ارخي عينيه واحمر وجهه خجلا

فتوردت وجنتاها كذلك ثم هزت رأسها ولزمت الصمت ولما فرغا من الطعام خرجا ليبحثا عن شجرة كانت تعرف اليصابات انها مشهورة بصغار الطيور ولكن عبثا حاولا وأخيراً قال جودفرى

ـ أرى ان الشجرة التى تبحثين عنها قطعت على مايظهر وفوق ذلك ليس هذا أوان صغار الطيور

فقالت اليصابات بتبرم

ـ ولماذا لم تخبرنى بذلك من قبل بدلا من تضييع كل هذا الوقت ؟

فقال جودفرى بهدوء

ـ لاأدرى . ولكن لايهمنى اذا كنا نبحث عن صغار الطيور أو عن العنقاء مادمنا معاً

ـ لاريب عندى ياجودفرى انك أجهدت عقلك فى العمل

فزدت بلاهة وانى استبيح لك العـذر لان كل شاب يتخرج من الـكلية الحربية لابد أن يكون قد أجهد عقله . الآن يجب أن أعود الى المنزل لانى لم أرتب فيه شيئا إلى الآن . لاتنسأن والدى قادم عما قريب ومعه سـتة أو ثمانية أشخاص وكلهم من الأغنياء فلا مندوحة من أن اعد المنزل لاستقبالهم

فقال جودفرى بتألم

ـ هل يجب أن تعودى ؟

ـ نعم . ويجب عليك أن يعود أيضا فان أباك سيعود بقطار الساعة الخامسة وارى ان تستقبله . وربما قابلتك غداً

فصاح جودفري بصوت يشبه العويل قائلا

ـ لااستطيع . سأذهب غـداً إلى إحدى المدارس فى قريه نسيت اسمها حيث سيمتحن ابى بعض التلاميذ وسيقدمنى مثلا لانى كنت أول الناجحين فى الامتحان

ـ نعم . كمثال باهر — أو كاعلان — حسن . سنلتقى فيما بعد

ثم هرعت نحو المنزل دون أن تدع له فرصة

الفصل الخامس عشر

« أحبك إلى الأبد »

وصل جودفرى إلي المنزل بعد وصول أبيه بخمس دقائق فابتدره هذا قائلا

ـ نسيت أن أوصى بغدائك ياجودفرى فارجو أن تكون قد حصلت على طعامك

ـ نعم يا أبتى . لقد تناولت غدائى فى منزل السر جون بلاك

ـ أحقا ماتقول ! لم أسمع بان السر جون عاد

ـ كلا . لم يعد . وانما تناولت طعام الغداء مع اليصابات

فقال المستر نيت مرة أخرى

ـ أحقا ماتقول !

ثم انتهى الأمر عند هذا الحد

ذهب جودفرى فى اليوم التالى إلي تلك القرية . ولم يعد الا وقت العشاء . وبعد ذلك جاء يوم الأحد فذهب إلي الكنيسة على أمل أن يرى اليصابات ولكنها لم تذهب وبعدانتهاء الصلاة أقام المستر نيت حفلة شاى لبعض الذين حضروا الصلاة فاضطر جودفرى إلى البقاء معهم

جاء يوم الاثنين فكان حظ جودفرى عظيم اذ استدعى المستر نيت بعد الغداء مباشرة ليشهد حفلة تشييع جنازة رجل مات في إحدى القرى المجاورة فانتهز جودفرى فرصة ذهابه وسار بدافع غريب الى جذع شجرة الصفصاف المعهودة بجانب النهر حيث وجد لحسن الاتفاق اليصابات جالسة فى مكانها . فبعد أن أبدت ملاحظتها المعهودة عن العصافير قائلة أنها ليست مرتفعة ولا منخفضة وأنها تطير على ارتفاع متوسط قالت .

ـ لم أرك منذ مدة طويلة ياجودفرى

ـ نعم يخيل إلىّ أنها أجيال طويلة على رغم قصرها يااليصابات ثم أخذ يشكو لها بليته بالتفصيل . ولما فرغ قالت :

ـ آه ياجودفرى . هذه سنة الله في خلقه . ليس الانسان مطلق السراح فى هذا العالم بحيث يستطيع السير فى الطريق التى يرسمها لنفسه . خذ مثلا أذ والدى وأصدقاءه سيأتون غداً لتناول الغداء وسيمكثون ثلاثة أيام يقضونها فى الصيد وستمكث نساؤهم أيضاً وهذا يقضي علىّ بان أهتم بامر الجميع

فقال جودفرى باستياء :

ـ ان أنباء اليوم كلها سيئة . فقد تلقيت منذ هنيهة تلغرافا يحتم علىّ الحضور يوم الأربعاء . ولا أدرى لماذا لانى أتوقع أن أحصل على اجازة شهر

فتألمت اليصابات قليلا ثم قالت

ـ اذن لنتمتع بيومنا فاننا لاندرى ما يأتى به الغد

حقاً من يدرى ! لا أحد فى الوجود

جلس الاثنان بجانب النهر يتجاذبان أطراف الحديث هنيهة وبعد ذلك أخذا يسيران بين المراعى الخضراء التى تعود الرهبان أن يرعوا فيها غنمهم . وكان حديثهما فى البدايةعاديا ولكنه لم يلبث أن صار محدوداً فيه معنى التصنع . ولا عجب فقد كان كلاهما يفكر في أمور تختلف عن تلك التى كان يحاول التعبير عنهنا بالالفاظ — أمور لذيذه ثقيلة العبء متقدة تكاد تلتهم ماتعوداه كل يوم كنار آكلة

قلّ حديثهما بحيث كاد يصير سكوتا تاما فلم يتكلما الاصدفة وأخذا يصغيان الى دقات قلبيهما بدلا من الكلمات الخارجة من شفاههما

وكانت السحب قد خيمت فى السماء وأخذ المطر يتساقط رذاذاً فقالت اليصابات

ـ أظن أنه لابد لنا أن نأوى الى مكان مافقد لا تمضى مدة وجيزة حتي تبتل ثيابنا من المطر

ثم نظرت الى ثوبها الصيفى الرقيق

فصاح الشاب قائلا

ـ الى أين ؟ الى الدير ؟ كلا . سيعود أبى الآن . هيا الى منزلكم .

ـ لانستطيع الذهاب الى هناك أيضاً لان أبى لابد أن يكون هناك الآن . فقد علمت أنه سيصل بعد ظهر اليوم ليعد ما يلزم للصيد .

فتأوه جودفرى ثم قال

ـ يا إلهى ! أريد ... أن القي عليك قصة قد تهمك ولاأدرى كيف أجد فرصة أخرى

فسألته اليصابات بتألم قائلة

ـ ولماذا لم تلق عليّ قصتك هذه من قبل ؟

فاجابها بشئ من الحدة

ـ آه . لانني لم أفكر فيها غير الآن فقط

وكانا في هذه اللحظة مارين من أمام الكنيسة وقد أخذ المطر يتساقط مدراراً فدخلا من باب الهيكل وكان دائماً مفتوحا ولسوء حظهما تركاه كما كان ثم سارا الى قبرى السيدة وزوجها المعروفين وهما القبران اللذان ارتبطا بحوادث حياتهما ثم أخذا يصغيان هنيهة الى سقوط الامطار دون أن ينطقا بكلمة الى أن صار السكوت مؤلما . وكان كلاهما ينتظر أن يبدأ الآخر بالحديث . وقد ثبتت اليصابات فى هذا النضال الى أن عيل صبر جودفرى فقال فى النهاية

ـ أن قصتي ...

ثم تنهد وسكت . فقالت اليصابات

ـ حسن . ماهي قصتك ياجودفرى ؟ .

فصاح الشاب ألماً وقال

ـ آه . أن قصتى قصيرة جدا ياليصابات. . . أننى أحبك . هذا كل ما هنالك

انتفضت الفتاة لقوله هـذا واهتز ثوبها بحيث اصـطدمت الآلهة الذهبية التي كانت على صـدورها بعضها ببعض ثم جمدت في مكانها كالتمثال ورفعت عينيها الواسـعتين وأخذت تجول بهما فيه وأخيراً حدقت في عينيه ثم قالت

ـ هل هذا صحيح ؟

ـ صحيح ! انه صحيح كالحياة والموت أو كالجنة والنار .

ـ لا أعرف شيئاً عن الجنة والنار . أنها أشياء مفروضة ويكفينى الحياة والموت

ثم سكت . .

فقال جودفرى

ـ اذن بحق الحياة والموت اننى أحبك — حيا وميتاً —الى الابد

فقالت

ـ شكراً لك

ثم لزمت الصمت مرة أخرى فقال الشاب :

ـ انك لاتساعدين الانسان كثيراً . اليس لديك شيء تقولينه ؟

ـ ماذا تريد أن أقول ؟ انك صرحت لى بحبك فشكرتك ولم تسألني شيئاً بعدها

فقال جودفرى بتبرم

ـ اذا كنت أحبك فانه يهمنى بالطبع أن أعرف هل تحبيننى

ـ اذن لماذا لم تقل ذلك ؟ ولكن

ثم تغير صوتها الى نغمة لذيذة تنم على ما يتقد فى نفسها من الحب الصادق والغرام الصحيح

ـ ... ولكن أما وقد طلبت معارفة ما يكنه لك قلبي فاعلم ياجودفرى انى أحبك وانى كنت دائماً أحبك وانى سأحبك دائماً في الحياة وفى الممات وانني أحبك الى الابد

حدق جودفري فى وجهها ثم حاول أن ينطق فلم يستطع ثم حاول فلم يستطع ولما أعيته هذه الحيلة لم يجد مندوحة من أن يلتجيء الى حيلة قديمة معروفة فطوقها بذراعيه وضمها الى صدره وأخذ يقبلها المرة بعد الأخري وهى تقبله وقد استلمت له كالطفل الصغير

أخذ جودفرى واليصابات يرتشفان كؤس الغرام ويردان مناهل الحب الصافية العذبة . وبينما هما على هذه الحال يمثلان أبدع صورة للحب الظافر ويترنحان بنشوة الفوز رأى شخص آخر ان يلتجيء الى الكنيسة ليتخذها مأوى من الامطار التى كانت

تتساقط مدراراً فوجد هذا الشخص ـ وكان هو المستر نيت نفسه الباب مفتوحاً فدخل بخفته المعهودة وانسل كالقرد ولم يلبث ان وقع نظره على مشهد العاشقين البديع فجمد فى مكانه

عرفهما المستر نيت في طرفة عين على رغم الظل المخيم فى المكان فلما رأى الابن الذى يكرهه والفتاة التى يمقتها وقد احتضن كل منهما الآخر وتاه فى بحر من الوجد والهيام ثار غضبه وكاد يذهب عقله فرفع يديه فوق رأسه وهزهما بعنف وقال

حتى فى كنيستى ، في كنيستى !

وبعد ذلك لم يستطع احتمال هذا المنظر فانسل الى الخارج كما دخل دون أن يكترث بالامطار التى كانت تهطل فوق رأسه

وكان المستر نيت من ألد اعداء النساء يعافهن ويعاف كل شيء يتعلق بهن ويعد كل عاطفة بسيطة بين الرجل والمرأة عيباً فاضحاً بل وانحطاطاً واذا قويت هذه العاطفة عدها من أعظم الجرائم ولعمرى لو أعطى هذا الرجل القوة والسلطان لواد كل فتاة على ظهر الارض كمخلوق لافائدة له في الوجود وهو يعتقد انه يفعل ارادة الله . ولاعجب فقد كان قلبه ميتاً وطبيعته باردة ترفض مثل هذه العواطف البشرية وقد نسى أن الغيرة والحسد وكره الخير وغير ذلك من الصفات الخبيثة التى يتغذى بها قلبه شر من اندفاع العاطفة البشرية طوعا لامر الطبيعة العالى الذى لا يلغى

ولما كانت هـذه اعتقاداته وآراءه فانه يستحيل التعبير عن

مبلغ غضبه عند ماوقع نظره على العاشقين وهما يعلنان حبهما المقدس عملا بامر الطبيعة الذى لا يرد وعندى لو كان هناك رجل آخر رأى طفلا رضيعاً يجلد ليموت ما ثار فى قلبه غضب أشد من الغضب الذى ثار في قلب المستر نيت وقتئذ ولو كان هذا الطفل فلذة كبده

وكان المستر نيت لايخشى في الاعوام الماضية شيئاً غير أن يزداد حب جودفرى للفتاة التى كان يمقتها مقتاً . وكان معروفا بالطمع وحب الذات ولكن كرهه للفتاة تغلب على كل عاطفة أخري . نعم كان يعلم أن اليصابات تحب جودفرى وانها تكون له خير زوجة فى الحياة وانه يستطيع وهى إلى جانبه أن ينال كل شيء في العالم ولكن لم يكن لكل هذه الاعتبارات تأثير يخمد روح المقاومة التى ثارت فى نفسه ضد مثل هذا الزواج . ولا نبالغ اذا قلنا انه كان يفضل أن يرى حفلة جنازة ابنه على أن يرى حفلة زفاف اليصابات اليه

خرج المستر نيت يتخبط من باب الكنيسة وقد اتقد الغضب في نفسه كأتون من نار وهو لايدرى ماذا يصنع لينصب الخزى والعار على هذين العاشقين اللذين استطاعا أن يقبل كل منهما الآخر ويتعانقا بين القبور

طرأت على عقله فكرة خبيثة خالها أوحيت اليه من السماء فقال ان السر جون بلاك وصل إلى المنزل لانه شاهده منذ

هنيهة جالساً فى مركبة فاخرة وقد حيا كل منهما الآخر وعليه لابد أن يذهب اليه ويطلعه على جلية الخبر ويتظاهر له بأنه لا يريد أن يمس جاره بأذى بوقوع ابنته في شرك علاقة لا يرضاها وكان يجهل مشروعات السر جون وأمانيه التى علقها على مستقبل تلك الابنة

ماكادت تستقر هذه الفكرة في عقل المستر نيت حتى نفذها فى الحال فلم تمض ثلاث دقائق حتى وصل إلى « هوك هول » فوجد السرجون واقفاً أمام الباب الخارجى فاستقبله هذا قائلا

ـ مرحباً أيها الأب المحترم . كيف حالك ؟ أراك مبتل الثياب من المطر . هل لك أن تتناول كأساً من الخمر ؟

ـ شكراً لك أيها السرجون . يكفينى فنجان من الشاي

ـ شاي ! ان هذا يستغرق وقتاً طويلا وأرانى مضطرا إلى مغادرتك لتتناوله وحدك فانى أريد أن أبحث عن ابنتى لأن بعض ضيوفى — ومنهم الشاب النبيل ارل مونتروي الذي أريد أن تقابله إبنتي بصفة خاصة — قادمون الليلة فى آخر قطار ولذا أريد أن يعد كل شئ بسرعة . هل تعلم أين ذهبت إبنتي ؟

فابتسم المستر نيت ابتسامة ميتة ثم قال

ـ أظن ان فى وسعى أن أخبرك أيها السرجون فقد رأيتها منذ هنيهة منهمكة بحالة غريبة مدهشة

ـ أين ؟ وكيف ذلك يامستر نيت ؟

دخل المستر نيت المنزل دون استئذان ودخل غرفة الاستقبال . ولما كان السر جون يتوق إلى معرفة ماهنالك تبعه الى الغرفة فقام المستر نيت وقفلها وراءه ثم أسند ظهره الى مقعد من المقاعد وقال :

ـ رأيتها فى فناء كنيسة الدير وكانت منهمكة بتقبيل ولدى جودفرى . وكان هو على الأقل يقبلها وهي تجيبه على مايظهر على تقدماته الخبيثة فقد رأيتها لفت ذراعيها حول عنقه وسمعت أصواتاً تدلنى على ان الامر كذلك

فصاح السرجون قائلا

ـ ويحهما ! ماذا يريدان من وراء عملهما هذا ؟

ـ ان سؤالك هذا اذا جرد من التزويق سهل الاجابة . فاعلم أن ابنى الفاجر طلب الزواج بابنتك فقبلت طلبه

ـ ربما كنت صادقاً . ولكن إذا كان ابنك قد فعل ذلك فلا أرى فى عمله شيئاً يعد خروجا . ولعمرى لو لم أفعل شراً من ذلك لجثوت على ركبتىّ وصحت طالباً العفو والغفران . وعلى كل حال ليست هذه هى النقطة التى أريدها . اعلم يامستر نيت انني لااريد مثل هذا العمل ولا أوافق عليه ولكن لماذا أتيت لتخبرني به ؟ كنت أرجو أن تبتهج على كل حال فانه لايحتمل أن تكون اليصابات شحاذة ولذا أرى من الغريب جداً أن تعارض فى ذلك —

وهو ما أراه مرسوماً على وجهك — ما لم تقصد التقبيل وهو شيء معروف من قبل

فقال المستر نيت بلهجته المعروفة

ـ انني أعارض كل المعارضة أيها السرجون . انني اكره ابنتك التي اشتهرت بضعف اعتقاداتها الدينية والتي أخشى أن تؤثر بسمومها في نفس ولدى فتجعله خبيثاً مثلها

فصاح السرجون به قائلا

ـ تباً لقلة اعتقاداتها الدينية وتباً لاعتقاداتك ووقاحتك أيها الشيخ المرذول . انني لا أحب من خلال ابنتي شيئاً اكثر من مناوأتها لك ولمن هم على شاكلتك ومقاومتها لترهاتك التي تنطوى على الجهل . ماذا تريد ؟ هذا ماأريد معرفته

فتنهد المستر نيت وتأوه تأوهاً ينطوى على الغضب ثم قال

ـ بصفتي قسيساً يجب ان أتجاوز عن اساءتك وسأحاول أن أبسط اليك الحقيقية النقية المقدسة

فقال السرجون ساخراً

ـ أراك تريد الوصول إلى النبيذ النقى المقدس ولكن هذا شأنك . الآن اخبرني ماهذه الحقيقة ؟

ـ واأسفاه ! يجب ان اعترف لك بما هنالك . اعلم ياسيدى أن ولدى أحط مخلوق فهو من طلاب المال . أتدري كيف حصل على تلك الاموال التي خلفتها له سيدة أخرى ؟

ـ لاأدرى . ربما وجدته جميل الوجه جذاب المحيا فارادت أن تعترف بحبه . ان مثل هـذه الامور معروفة . هل تظن انه زوّر الوصية ؟

ـ انك سفيه أيها السرجون

ـ هل أنا سفيه ؟ حسن وأنت وقح . اشكر الله لانك لست والدى . والآن أرى مما اتذكره عن ابنك هـذا انه ليس من طلاب المال بل هو شحاذ يريد أن يستميل الفتاة التى يرغبها . هذا كل ما هنالك . ومع ذلك انك تعرفه خيرا مني ولا يسعني لا أن أقول انك صادق . وعلى كل حال اذا كنت لاتريد زواجهما فاني اقول انى لااريده كذلك . هـل تزعم انني اريد أن أري إبنتى الوحيدة التى سترث نصف مليون جنيه والتى قد تصير غدا من الاشراف تتزوج بابن رجـل شحاذ قذر مثلك ؟ ولما كنت من المغرمين بالحقيقة النقية المقـدسة فاني لا اكتمها عنك وهى انك فتان قد افشيت سر ابنك وابنتك

فقال المستر نيت

ـ ان ضميري وواجبى . . .

فقاطعه السرجون قائلا

ـ ما احط ضميرك وواجبك . انك جاسوس نمامذووجهين. هذه حقيقتك . ألم تقبل فتاة في حياتك ؟

ـ كلا حتى تزوجت

ـ إذن . انني آسف على حال زوجتك . ولكن لندع هذا الكلام الآن فقد علم كل منا حقيقة رفيقه وكفي . الآن أرى اننا نرمي الى غاية واحدة فانت تريد أن تحول دون هذا الأمر لانك رجل تقى لاأهمية لك فى العالم وأنا لااريده لانى رجل ذو مطامع أريد أن أري إبنى حيث يجب أن تكون فترتدي تاج الأمراء فى مجلس الاعيان .ولكن كيف يمكن الوصول الى هذه الغاية ؟ انك لاتعرف أخلاق اليصابات مثلى فاعلم انها متي اصرت على أمر فانها لاتحيد عنه قيد شعرة لوانطبقت الارض على السماء واذا جابهتها في أمر نشبت أظافرها في وجهي وتهددتني بالسفر الى أية جهة أرادت وتركتني وحدى أنعى حظى . نعم استطيع أن أبقيها شهوراً قليلة إلى أن تبلغ سن الرشد ولكني بعد ذلك لااستطيع وعلى ذلك أرى ان الامر يتوقف على ابنك فهل تخبرني عن موطن الضعف فيه ؟ هل يمكن استمالته بالنقود ؟

فقال المستر بيت

ـ كلا بلا ريب

فصاح السر جون قائلا

ـ ان هذا أمر غريب فى شخص تقول انه من طلاب الثروة والمال . اذن ما هو ؟ ان كل شخص فيه موطن للضعف ورأيي ان فتاة أخرى لاتستطيع الآن ان تستميله عنها

فقال المستر نيت

ـ ان موطن الضعف فيه حبه لذاك الجنس الخائن الممقوت الذى رأيت الآن منه مثالا مؤلما فى الكنيسة أيضا . نعم وفى الكنيسة

ـ انه مكان جميل يلتجأ اليه وقت هطول مثل هذه الامطار ولا ريب في أنهما كانا يجهلان انك كنت مختبئاً تحت مقاعد الكنيسة ولكن دعنا من ذلك . ماذا لديك بعد ذلك ؟

اكفهر وجه المستر نيت لهذه الاهانات المتوالية ولكنه تمكن بقوة غريبة من التغلب على ثورة غضبه لانه أراد الوصول الى غاية تمثلت لعقله الفاسد انها أسمي غاية فى العالم وأعنى بها الحيولة الى الابد بين ابنه واليصابات

عاد المستر نيت الى الكلام فقال :

ـ أما ضعفه الثانى فأنفته وكبرياؤه الذى تولد في نفسه بحالة غير عادية على رغم ماذلته لاذلال نفسه منذ نعومة اظفاره . فهو لايستطيع أن يتحمل أية إهانة أواستخفاف . خذ مثلا انه هجرنى بضع سنوات لانه رأى انى لم أقابله كما يجب عند عودته من سويسرا ثم ثار غضبه لانني أتهمته بانه يجرى ورواء أموال ابنتك

فقال السر جون :

ـ لايجدر بك أن تقول ذلك وعلى كل حال وجدت أملا للوصول الى الغاية المنشودة . تقول انه ذو انفة لا يحتمل التلميح الي اتهامه بالسعى وراء المال . حسن . سأضع أنفه في التراب .

وسأعرف كيف أذله لان لى كما تعلم خبرة واسعة فى هذا العمل . هيا بنا فاننا سنجدهما فى الكنيسة حيث يظنان انهما فى مأمن من الرقباء

وهكذا سار الاثنان تدفع كلا منهما غايات مخصوصة ليقوما بمهمة لا يتصور العقل البشرى مهمة أقسى منها . إذ أية جريمة أفظع من السعى وراء التفريق بين حبيبين ارتبطا روحاً وجسداً وصب العذاب فوق رأسيهما والقضاء على حياتهما ؟ ومع ذلك لم يفكر أحدهما ان عملهما هذا قد يعد تآمراً على قتل روحين بريئتين

سار المسترنيت ولا غرض له غير انقاذ ولده من براثن اليصابات التى قد تحمله على الابتعاد عن طريق الله . أما السرجون بلاك فكانت له غايات أخرى تختلف كل الاختلاف عن غايات زميله فقد كان من أحط الناس نفساً ، فظاً غليظ الطبع ، لا يحجم عن اخماد أنفاس أى مخلوق يعترضه في سبيل مطامعه . على انه كان رجلا قادراً بدليل النجاح العظيم الذى أصابه

كان السر جون كثير المطامع يعلم انه غليظ الطبع وان أخلاقه هذه تقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق أمانيه . ولكن كانت له ابنة وضعتها الطبيعة فى مستوى آخر ذات قدرة مثله ولكنها كانت رقيقة الطباع بخلافه تستطيع الاختلاط بأعلى الطبقات فى العالم وتقابل منهم بالتجلة والاحترام . ولا عجب فقد كانت اليصابات تتمتع فوق جمالها بقوة جذابة زد على ذلك انها كانت ذات مال وافر تعد من أغنى فتيات انكلترا فاذا راعينا ذلك لا نعجب اذا

كان أبوها يريدأن يزوجها برجل من الاشراف . وكان السرجون يحلم ليلا ونهاراً بهذه الامنية وهذا هو السبب في زيادة لورد مونتروى اشاب ""هوك هول"،

وكان "اللورد مونتروى رأى اليصابات من قبل فى مأدبة في لندن فأعجبته ورغب فى الزواج بها . وقد أسر رغبته هـذه الى سيدة فأبلغتها للسر جون وكان الشاب ذو مطامع عظيمة فرأي فى الزواج باليصابات تحقيقاً لهذه المطامع . وقصارى القول راقت الفتاة في عين اللورد وراق اللورد فى عين السر جون ولم يبق الا أن يروق اللورد فى عينى اليصابات ولـكن وقعت فى هـذه الآونة العويصة تلك "" الحادثة ..» المعروفة

لاعجب اذن اذا اتقد السرجون غضباً وصمم تصميما أكيداً على أن يضع حداً "" للحادثة ». وسار لتنفيذ الحملة الخبيثة التى دبرها المستر نيت

الفصل السادس عشر

حب وفراق

بقي جودفرى واليصابات متعانقين مدة طويلة وهما يجهلان أن عيناً شريرة تضمر لهما العداء قد وقعت عليهما الى أن رفعت اليصابات رأسها عن صدره فى النهاية وجلست على مقعد من مقاعد الكنيسة وأشارت اليه أن يجلس بجانبها ثم قالت بنغمة جديدة لذيذة لم يسمعها جودفرى من قبل

ـ لنتحدث معاً ياعزيزي

فجلس جودفرى بجانبها ثم تناول يدها ووضعها على قلبه الخفاق ثم قال بصوت خافت يكاد يكون همساً .

ـ علام تريدين أن نتحدث ؟ ان روحى كانت تناجى روحك في الدقائق الخمس الاخيرة — أو هل هى خمس ثوان أو خمسة أعوام؟ ليس لدى شىء آخر أقوله على ما يظهر يااليصابات

فقالت اليصابات بصوتها العذب

ـ ومع ذلك أرى أن لدى كلاماً كثيراً أريد أن أدلى اليك به ياجودفرى . أتدرى ان أفكاراً غريبة تملكتني عند ما كنا واقفين نقبل بعضنا بعضاً ؟ انك تتذكر تلك السيدة التى دفنت حيث كنا

واقفين وهي السيدة التى حاولت ان ارتدي ثوباً يشبه ثوبها فى حفلة الرقص ....

فقاطعها جودفرى قائلا

ـ دعينا من هذا الكلام لانك كنت تقبلين يومئذ رجلاً آخر

ـ كلا يا جودفرى لست صادقاً فى دعواك هذه فأننى لم أقبل أحداً من قبل بهذه الحالة وأظن اننى لم أقبل أحداً فى حياتى . اننى قبلت وردة . هذا كل ما هنالك وقد علمت انك فعلت مثل هذا العمل وربما فعلت أكثر من ذلك . على اننى اتكلم الآن عن هذه السيدة لا عن حفلة الرقص فقد خيل الىّ انها قامت من قبرها وتلبستنى ثم قالت لى شيئاً

فقال جودفري بامتعاض

ـ حسن . وماذا قالت يا اليصابات ؟

ـ لاأدرى مع أنها خاطبتني كما يخاطب الانسان نفسه . وكل ما أعرفه أن حديثها كان يتعلق بعشاق وصبر وفرح عظيم وحرب وكارثة لابد أن تمسى ثم ـ بعد الكارثة ـ راحة لانهاية لها وسعادة أبدية

فقال جودفرى باللهجة عينها

ـ أظن أنها كانت تقص عليك قصتها التى يظهر أنها ختمت بخاتمة حسنة طيبة

ـ نعم أظن ذلك ولكن أرى أنها تعي أن قصتها ستكون

قصتي فأقلدها فى أدوار حياتهـا كما قلدتها فى ثيابها . نعم أن ذلك كله محض هذيان وهو من تأثير رهبة المكان فى نفسي ولكن كان يخيل إلى اذ ذاك أنه أمر حقيقي

فقال جودفرى

ـ هذه عادة الاحلام السيئة ولـكنها بعيدة عن الحقيقة ومع ذلك من الغريب أن كل شيء ذى أهميـة يصيبنا لا يقع الا على بعد خطوات قليلة من رفات هذه السيدة . لا أستطيع أن أكفر بالارواح وتأثيرها فينا ولـكن الشيء الغريب انك بدأت تعتقدين بها

ـ كلا لا أعتقد بها يا جودفرى ولو أنني أعترف بان آرائى المتعلقة بهـا أخذت تتغير . أنك تعلم أننى كنت أعتقد أن كل شيء ينتهي بموتنا ولـكني الآن أعتقد غير ذلك ولا أدرى لماذا

انتهي الحديث عند هذا الحد ولا غرابة فقد كانت نفساهما مفعمة فرحاً بتلك الساعة اللذيذة بحيث لم تـكن هنالك رغبـة فى اضاعة الوقت سدى في حديث عن سيدة ماتت منذ خمسمائة عام وفوق ذلك كانا يخشيان ماقد يلى تلك السـاعة اللذيذة من الآلام . وقد دب هـذا القلق فى نفس اليصابات بحيث لم يسعها الا أن قالت

ـ اننى حزينة ياعزيزى ولـكن لابد أن أعرب لك عن حزنى .

انني واثقة من أنه ستكون هناك مشاق ومتاعب من جراء حبنا هذا ياجودفرى

ـ بلا ريب يا اليصابات . ان هناك مشاق فيما يتعلق بي على الاقل . لا تنسي أن السعادة يجب أن تشترى ولا ثمن لها غير تحمل المتاعب والآلام ولكن ماذا يضيرنا مادام كل منا متمسكا بالآخر ؟ سيبلغ كلانا سن الرشد عما قريب واذا ذاك لنا أن نفعل ما نشاء

ـ ان الانسان يفكر بذلك دائما ياجودفرى ومع ذلك لا يستطيع لسبب ما أن يبلغ أمنيته . ان الارادة المطلقة شيء يكاد لا يكون له وجود

ـ انك تعلمين ان لدي شيئاً مع راتبي يكفينا أن نعيش معاً حتى اذا حرمت من الارث ياعزيزتي ولو أنك لاتعيشين كما تعودت

فقالت اليصابات بتضجر

ـ لا تخاطبني في هذا الامر ولو أني أرى نفسي مضطرة الى أن اقول انى حصل على جانب من المال ورثته عن أمي . ان المال لا يفرق بيننا ياجودفرى

ـ اذن ما الذى يحول بيننا يا اليصابات ؟

فقالت بلهجة تنطوى على الاعتقاد واليقين

ـ لاشيء مطلقاً حتى ولا الموت نفسه لاننا صرنا جسداً واحدا وروحا واحدة لا ينفصل أحدنا عن الآخر مهما حدث . انني

واثقة من أنه سيحدث شيء يحملك على مفارقتي

فقام جودفري من مكانه فجأة وصاح قائلا

ـ اقسم بانني لن افارقك الى الأبد وانني أؤثر الموت على أن أفارقك

فهزت اليصابات رأسها وهي تبتسم ثم قالت

ـ لقد اقسم كثيرون مثلك من قبل فنقضوا يمينهم ... قبل طلوع الفجر

فصاح جودفري مرة اخري قائلا

ـأقسم بانني احبك دائما...

فقاطعته مرة اخرى قائلة

ـ آه . الآن صدقتك ياعزيزي ! ستحبني دائما مهماسلكت مسلكا سيئاً لانك مرغم على ذلك

ـ حسن . وهل تحبينني دائما مهما سلكت مسلكا سيئاً ؟

فقالت اليصابات

ـ بالطبع . لانني مرغمة . والآن مهما سمع احدنا عن الآخر فلنثق بأن كلانا يحب الآخر — لاننا مرغمان — وان جنتك وجحيمك لا يحدثان اى تغيير . كلا . ولو اتحدت قواتهماوبذلت كلها مافي وسعها . ولكن هـذا ليس معناه اننا سنتزوج لاني اظن ان الذين يحبون بهذا القدر قلما يتزوجون لانهم كما ترى يبتهجون الى حد عظيم يحول دائما دونه عامل مجهول . ولكن

قد يكون معناه ان لا يتزوج احدنا بشخص آخر ولو انه يحتمل ان يقع هـذا الامر فيما يتعلق بك لافيما يتعلق بي . تذكر دائما ياجودفرى أنى لن أتزوج بأحد غيرك ولو تزوجت أنت ثلاث زوجات الواحدة بعد الاخرى

قال جودفرى بلهفة

ـ ثلاث زوجات

ـ نعم . ولم لا ؟ أن هـذا شيء طبيعى . أليس هذا مستطاعا اذا لم تتزوج بى ؟ أما أنا فلن أتزوج بغيرك لانى لا أسـتطيع واذا حاولت جررت الدمار على نفسى والعطب

فقال جودفرى

ـ كفى ياليصابات . الآن اخبرينى متى تذهبين للقاء ضيوف أبيك ؟

ثم فتح لهـا ذراعيه فألقت نفسها بينهما واذ ذاك نسـيا شـكوكهما ومخاوفهما

وكان المطر قد وقف عن الهطول وأضاءت الشمس بنورها البديع واخترقت أشعتها زجاج النافذة الغربية الملون فـكساهما بجميع ألوان أجنحة الملائكة وجعلهما ظاهرين للعيان فى وسط الـكنيسة التى خيم الظلام فيها قليلا

***

وصل السر جون والمستر نيت الى الكنيسة فوقفا عند بابها ينظران الى منظر العاشقين البديع

قال السر جون لرفيقه بلهجة تنطوي على السخرية

ــ لقد أتينا فى الوقت المناسب ألا ترى منظرهما بديعاً ؟ ألا تود أن تكون شاباً مثله وبجانبك فتاة أخرى مثلها ؟ لا أنكر عليك القول انى أتمنى ذلك

فدمدم المستر نيت شيئاً لا معنى له وقد ثار غضبه اذ حقد فى تلك اللحظة على السر جون كما كان يحقد على الفتاة

صاح السر جون مخاطباً جودفرى والفتاة ومعلناً نفسه لهما

ــ حسن أيها العاشقان . كفاكما شكوى غرام ولا تنوحا كنوح الحمام . كفا عن عملكما هـذا والا لويت عنقكما أيها الأحمقان

فقاطعه المستر نيت قائلا :

ــ كلا . لا تفعل ذلك فى هذه الكنيسة المقدسة التى دنسها هذان الوقحان بعناقهما الدنس

ــ نعم . انك مصيب فيما قلت . . . كفاكما عاراً وخزياً . لا تقفا كخنزيرين صغيرين بل تقـدما لنتحدث في فناء الكنيسة فى أمركما

انسحب كل من جودفري واليصابات من بين ذراعى الآخر على أثر وصول الكلمات الأولى الى آذانهما ووقفا جنباً الى جنب

بجوار المذبح كأنهما عروسان فى حفلة الزواج

استولت عليهما الدهشة والحيرة معاً ولا عجب . وكانت اليصابات قد أفاقت من دهشتها قبـل جودفري فخاطبته بصوت جهورى قائلة

ـ تقدم يا عزيزى . ان أبى وأباك يريدان أن يتحدثا معنا . يسركي أن تكون لنا هذه الفرصة العاجلة لنفصح لهما عن قضيتنا

فقال جودفرى وقد شعر بغضب أثاره فى نفسه ما توقعه من الشر في مجابهة هذين الرجلين

ـ نعم . هيا بنا لننظر فى الامر

سار الاثنان يتقدمهما السر جون والمستر نيت الى أن وقف الجميع بجانب النصب الذى أقامه السرجون فوق قبرزوجته وقد استعد الفريقان للنضال والكفاح

وكان السر جون أول من تكلم فقال مخاطباً ابنته : —

ـ هل تخبرينني يا اليصابات لماذا رأيتك تقبلين هذا الشاب — كما أظن — كما تقبل فتاة قروية منحطة عشيقها وراء حظيرة ؟

جمدت عينا اليصابات ولمعتا ببريق الغضب وقالت :

ـ للسبب عينه يا ابتى . انني قبلت هـذا الشاب كفتاتك القروية لأنه حبيبي الذى عولت على الزواج به . واذا كنت لست واثقاً مما شاهدت — وهو ما يؤخذ من كلامك — فانني أقبـله على مرأى منكما مرة أخرى

فاضطرب السر جون قليلا وصاح قائلا

ـ لست أرتاب فى أنك تستطيعين ذلك

جاء دور المستر نيت فخاطب ابنه قائلا

ـ ألم تجد مكاناً آخر لأعمالك هـذه الدنسة غير الكنيسة يا جودفرى ؟

فقال الشاب

ـ كلا . لم نجد غير هذا المكان لنلتجئ اليه من المطر . ولكن ماذا تعني بقولك هذا ؟ هل من الجرم أن يحب رجل امرأة ؟ أظن ان الكتاب المقدس الذى تستشهد به دائما يعلمك غير ذلك . وفوق ذلك قد تزوجت ولولا ذلك لما كنت على قيد الحياة وهو ما لا أشكرك عليه لولا اليصابات

لم يستطع المستر نيت أن يجيبه على قوله فلزم الصمت ، ولكن السر جون كان قد أفاق من اضطرابه فحمل مرة أخرى مخاطباً جودفرى

ـ اصغ الىّ أيها الشاب . ليس لدىّ وقت أضيعه سدى فى الاصغاء الى الكتب المقدسة والاعمال الادبية وغير الادبية وغير ذلك من هذه الترهات التي لك أن تجادل أباك فيها فيما بعد ولكن اعلم انني رجل صريح أريد جواباً صريحاً على سؤال صريح . . . هل تظن انك ستتزوج بابنتى اليصابات !

فقال جودفري برزانة

ـ نعم هذه رغبتي ونيتي .

ـ آه . أحقاً ما تقول ؟ اذن انك مخطيء في رغبتك ونيتك . . . لنفصح الامر . انك شاب صغير لا أهمية لك تنوى الالتحاق بالجيش فى المستقبل وقد تفعل ذلك أو لا تفعل ثم تريد بقحتك أن تتزوج بفتاة من أغنى فتيات انكلترا ضد رغبتي . . .

فقاطعه المستر نيت قائلا :

ـ وضدرغبتي أيضا ، أنا الذى أعد هذه الفتاة أخبث مخلوق على ظهر الأرض لأنها ترفض الدين المسيحي وتريد أن تقودك الى الدمار . وهـذا هو السبب فى انني لما وجدتكما على هـذه الحال أسرعت الى السر جون وأطلعته على جلية الخبر

حدقت اليصابات فى وجهه وقالت

ـ آه . أنت فعلت ذلك . هل فعلت ؟

ثم غيرت لهجتها الى لهجة أخرى تنطوى على الاحتقار وقالت

ـ حسن . يسرني أن أعلم مبلغ جبنك أيها الأب المحترم . الآن لا أدرى هل ألقي الخطاب الذى أحضرته الى الدير ليرسل الى جودفري في صندوق البريد أو وقع في يد . . . رجل مثلك

فقال المستر نيت

ـ انه وقع فى يدى وقد قرأته ولا أزال أحتفظ به الى اليوم

وقد وجدت من واجبي بصفتي والد أن لا يتلقى ابنى هذا الخطاب وما رأيته بعد ظهر اليوم يدل على انى قد أصبت فيما فعلت

فقالت اليصابات بازدراء

ـ شكراً لك . لقد ارتاح بالى الآن كثيراً

ثم حولت وجهها نحو الواقف بجانبها وقالت بلهجة العطف

ـ انى أعتذر اليك ياعزيزى جودفري عما تساورنى من الشكوك والريب فقد علمت الحقيقة الآن

ثم تحولت نحو المستر نيت وقالت

ـ كنت أظن انه يستحيل أن يكون القسيس لصاً . .

فقال السر جون بصوته الغليظ

ـ دعوا هـذا الحديث جانباً . . ان المسألة هى — ثم أشار الى جودفرى بأصبعه الغليظ — ان المسأله هى انك . . حسن . سأخبرك بحقيقة أمرك . . انك شاب مخادع ماكر من طلاب الثروة والمال . لقد رأيت ان هـذه الاملاك ستؤول مع ثروة طائلة من المال الى اليصابات فأردت أن توقعها فى شركك كما أوقعت تلك السيدة فى لوسرن . دع عنك هده الفكرة يا ولدى فان لديّ مشروعات أخرى أعددتها لابنتي . هـل تظن انني أزوجها بابن رجل كهذا يتظاهر بالتدين . وهو يسرق الخطابات ويوشي بابنه ؟

ثم مدّ أصبعه الغليظ حتى كاد يضعه فى عين المستر نيت

قال جودفرى وهو يلهث

ـ ماذا تقول ؟ أتقول اننى من طلاب الثروة والمال ؟

ـ نعم هذا ماقلته وأكرر قولى هذا اذا شئت

فقال جودفرى بصوت هادئ ينطوى على الرزانة ورباطة الجأش

ـ اذن أقول انك كذاب . وأقول انك رجل وضيع سافل أثريت بطريقة ما فظننت ان هذا يبرر اساءتك لمن هم أعظم منك شرفاً وقدراً

فصاح السر جون بصوت غليظ يشبه خوار الثور

ـ أتجرأ أيها الشاب المرذول على أن تدعونى كذاباً ؟ اعتذر فى الحال والا . .

ثم سكت . .

فقال جودفرى

ـ كلا . لا أعتذر . أكرر قولى فأقول انك كذاب بل انك أعظم كذاب لقيته فى حياتى . الآن . . . والا ماذا ؟

نطق جودفرى بهذه الكلمات ثم رفع صدره وقد اتقدت عيناه السوداوان وأضاء وجهه الجميل بنار الغضب . وكانت اليصابات واقفة إلى جانبه وعلى فمها ابتسامة رقيقة تنظر اليه بمؤخر عينها نظرة اعجاب

فحمل عليه السرجون بمظلته وضربه بها بكل قواه على رأسه

فترنح جودفرى ولـكن لحسن الحظ سقطت الضربة فوق قبعته بحيث لم يصب بضرر يذكر

كاد جودفرى يجن غضباً فحمل على السرجون بخفة كالنمر وضربه ضربتين احـداهما بيده اليسرى والأخرى باليمني . وكان جودفرى من المولعين بالملاكمة ومن الذين اشـتهروا في الـكلية الحربية فاصابت الضربة الأولى السر جون في شفتيه الغليظتين فقطعتهما وأصابته الثانيـة في عظم انفه فجعلت الدنيا مظلمة فى عينيه . وكانت الضربة الأخيرة صادقة فألقته على الارض . وقد حاول أن يمنع نفسه من السقوط فامسك المستر نيت باحدى يديه وبالاحرى النصب الذى أقامه على قبر اللادى جونيـا ولـكن لم ينفعه ذلك فسقط الـكل معاً ـ قال جودفرى

ـ الآن قمت بما يجب عليّ

فصاحت اليصابات قائلة

ـ نعم . وقد أحسنت صنعاً

ثم لزما الصمت الى أن قام الرجلان وهما يتأوهان

قال جودفرى

ـ انى آسف على ما أصابك أيها السر جون ولـكني لاأزال اصر على قولي وهو انك كذاب

خلع السر جون سنة من أسنانه ومسح الدم الذى كان يسيل من انفه بمنديله الحريري ثم قال بصوت خافت

ـ أحقاً ما تقول ؟ حسن . وانا اكرر قولى انك شاب دنئ من طلاب الثروة الطائلة . اعلم اننى أفضل أن أري إبنى جثة هامدة على أن أراها تزف اليك

فقال المستر نيت

ـ وأقول أنا أيضاً ياجودفرى اننى افضل أن أراك جثه هامدة على أن تتزوج بها

فقال جودفرى بهدوء ولو انه كان يغلي كالقدر — ليس هناك ما يحملك على الخوف يا ابتى . انك دبرت هذا الأمر تدبيرا حسناً . اصغ الىّ ايها السر جون انني لا اخضع لهذه الاهانات حتى ولا لاجل اليصابات.لم لن اتخلى عنها ولكنى اقسم بالله وبحبها باننى لا أتزوج اليصابات أو اراسلها أو احدثها مرة أخرى مادمت أنت على قيدالحياة . أما بعدموتك —الذى أقول انه سيكون قريباً — ثم نظر الى جسمه الغليظ نظرة انتقاد — فعندئذ — اذا أرادت انتظارى — اتزوج بها راجياً أن تخسر أموالك فى خلال ذلك أو تتصرف بها كما تشاء

حدق السرجون فى جودفري النظر وهو لايزال يمسح وجهه من أثر الدم ولكنه لم يجد شيئاً يقوله . ولا عجب فقد كان يهاب الموت كثيراً فأثرت هذه النبوة فى نفسه تأثيراً شديداً . وفى هذه اللحظة صب اللعنات فى قلبه على الاسقف وتمنى لو انه لم يتعرض لهذه المسألة بأى حال من الاحوال . ثم أدرك وهو فى

ورطته هذه أن جودفرى شاب جميل أحبته ابنته وانه تعدى عليه ورماه بتهمة مختلقة دبرت من قبـل. وفوق ذلك رأى ان سبق السيف العذل وأن الأمر قد قضي وذهب كل رجاء

تكلمت اليصابات بعد ذلك بصوت رائق هادئ فقالت

ـ لقد أحسن جودفرى فيما صنع ولم يفعل ما يلام عليـه . لو كنت قد تركتنا يا أبتي انت وهذا الرجل — مشيرة باحتقار الى المستر نيت — وشأننا لجئنا اليكما واخبرنا كما بكل ما جرى بيننا فاذا لم توافقا على زواجنـا انتظرنا حتى نبلغ الرشـد وإذ ذاك نفعل ماتخوله لنا الحرية . ولـكن ذلك مستحيل الآن بعـد ما جرى بينكما من الضرب واللكم فقـد أهنت جودفرى بقسوة شديدة ثم اعتديت عليه بالضرب ولعمرى لو لم يدافع عن نفسه كما فعل لما اعتبرته رجلا ولما اهتممت بامره بعد الآن . . . لقد أقسم جودفرى يميناً اعرف انه سيبر بها . والآن أقسم أنا أيضاً يمينا سأبر بها بلا مراء . وعلى ذلك أقسم أمامكما بحياتى وحياة حبيبي جودفرى أن لا أتزوج برجل غيره أو أتودد اليه . وعلى ذلك أقول أن جميع مشروعاتكما اصيبت بالخيبة والفشل . نعم وقد جلبتما كل هذا الشقاء علينا بدون جدوى . واذا كنت ياأبتى تريد الارتباط باسرة عظيمة فخير لك أن تتزوج وتدعني فى سبيلى وعلى كل حال اذا عشت بعدك وعاش جودفري تزوجت به بعد موتك حتى ولو بلغنا سن الشيخوخة . أما ثروتك فلايعنينى من

أمرها شيئا لاني لاأحجم عن الاشتغال في العالم بما لدى من القدر اليسير من المال

وقفت اليصابات كأنها تنتظر الجواب ولكن لم يجبها أحد .
واذ كان السرجون قد خاف من قبل فقد هاله الآن قول ابنته وهلع له فؤاده وهى واقفة بقوامها المعتدل الطويل وعينيها المتقدتين كأنها ملاك الانتقام

عادت اليصابات الى الكلام بعد هنيهة فقالت

ـ يخيل الى انه لم يعد هناك شيء يقال اللهم الا انني أظن أنه خير لك ياأبتى أن ترسل تلغرافاً الى مدعويك تنبئهم بانك على غير استعداد للقائهم لانني لن أقابل أو أحيي واحداً منهم ... الان استودعك الله ياعزيزى جودفري . سأتذكر كل ماقلته وعليك أن لاتنسي كل ماقلته أنا أيضاً وانى واثقة من اننا سنعيش و نلتقى يوماً ما ... لا تحقد كثيراً على أبيك لانهما فعلا حسب طبيعتهما وعقولهما ولو انني لا أدرى الى أين تقودهما أفكارهما هذه . . . . استودعك الله ياعزيزى وحبيبي جودفرى . ابذل جهدك فى العالم وابتعد عن الاخطار ما استطعت . آه ماأطول القصص التي سيقصها كل منا على الآخر عند لقائنا

ثم تقدمت اليه على مرأى منهما فتعانقا وقبل كل منهما الآخر وهو يحاول عبثاً أن يطفىء جذوة النار المتقدة فى فؤاده

قال جودفرى فى النهاية

ـ سأعى قولك هذا وأسطره بحروف من نار على صفحات قلبي . ليحرسك الله يا اليصابات وليكن معك . ابتهجي وافرحى ولا تدعى الحزن يتسرب الى قلبك . . . استودعك الله ياعزيزتى

ـ استودعك الله ياعزيزي . فكر بى دائما ياجودفرى اذا ما استيقظت من نومك وقبل أن تذهب الى فرشك كما سأفكر بك ولا أنساك

ثم تحولت وسارت دون أن تلتفت الى الى الوراء

***

لاحظ جودفرى قوامها الطويل وهى خارجة من باب فناء الكنيسة ثم وهي تسير فوق مرتفع صغير واقع وراء « هوك هول » الى أن توارت عن عينيه فلم يرها الا بعد سنين طوال

تحول جودفرى بعد ذلك نحو الرجلين وهما واقفان لا يدريان ماذا يفعلان ثم قال

ـ سأقابل اليصابات مرة أخرى ولكنى لن أقابل واحداً منكما بعد الآن لانني انتهيت معكما. ليس لى أن أدينكما بل عليكما ان تدينا أنفسكما بأنفسكما

ثم تحول هو أيضاً وسار

***

فقال السرجون للمستر نيت

ـ حسن سوف لا يتزوج بها فى هذه الأونة على كل حال .

وعلى ذلك أرى أن لنا أن نبتهج اذ استطاع الانسان أن يبتهج وهو مقطوع الشفتين مظلم العينين ومع ذلك يظهر اننا فعلنا فعلة شنعاء

ثم نظر الى التمثال المصنوع من الرخام وقد تكسر على الارض فقال المستر نيت

ـ لقد فعلنا واجبنا وأنقذت جودفري على الاقل من شر ابنتك

ـ لست واثقا من ذلك أيها الاب المحترم ولكني واثق من أمر واحد وهو انى صرت مطلق السراح منها أيضاً أو صارت هي مطلقة السراح مني كما صرت أنت أيضاً مطلق السراح من ابنك . ألا تدرى أيها اللئيم انك لن ترى ابنك مرة أخرى وانى بفضل نصيحتك المتشئومة لن أرى ابنتى بعد الآن أو على الأقل لا أراها كما يجب ؟ أى شيطان أرسلك لتحرك فى نفسى مطامعها وتستخدم ضعفي ؟ لو كنت تركت الامور تجرى فى مجراها الطبيعى لوقع بالطبع شقاق ولكن أقول انه كان ينتهى بسلام ولكنك أبلغتني كيف أؤلمه فلم أحسن صنعاً . الآن لا أمل ولا رجاء سواء كان لنا أولها أيضا الا بعد موتنا . هل تدرى أيها الشيخ المعتوه اننا حملنا ولدينا ـ اللذين كان يجب أن يكونا يدنا اليمنى فى شيخوختنا ـ على ان يتمنيا موتنا قبل كل شيء ؟ ولما كانا من الذين يحفظون كلمتهم فان موتنا وحده يطلق سراحهما أو على الاقل موتى

فكرر المستر نيت قوله قائلا

ـ انما قمت بواجبي ولا يهمني ما يقع بعد ذلك

ـ نعم ولكن ألا تدرى انك قضيت على حياتنا وعلى حياتهما؟ الا سحقاً لك أيها الشيخ المرذول لقد تعودت المشاحنة مع اليصابات من قبل ولكن هذه ليست مشاحنة بل هي كارثة انت السبب فيها ياإلهي ! ان فمي يؤلمني ولا استطيع ان أرى جيداً بعيني اليمنى. ان هذا الشاب الوقح له يد من حديد ... الآن يجب أن أرسل تلغرافاً الى كل من الذين دعوتهم وأدعى انني منحرف المزاج . نعم هذه خير وسيلة . الى الملتقى أيها الصديق المقدس . تجسس الآن واوش كما شئت

ثم سار السر جون وهو يحاول تخفيف آلامه فراقبه المستر نيت حتى اختفي وأخيراً قال في نفسه

ـ كنت أظن انني أمقت الابنة فاذا بالاب أمر وأدهى . ياله من رجل وقح ؟ كيف يجرأ على مخاطبتي بهذا اللسان ولكني مسرور لان جودفري القاه على الارض . الآن ارتاح قلبي اذ قضيت واجبي وسوف لا أشكو شيئاً بعد ما أنقذت جودفري وهو على حافة الهوة . سأتمشى قليلا حتى استرد قواى ويهدأ اضطراب نفسي . وفوق ذلك أرى من الصواب أن لا أقابل جودفري الآن

الفصل السابع عشر

الهنـد

عرج جودفرى وهو سائر فى طريقه الى المنزل ليعد حقيبة سفره على حـداد كان يعرف باسم توما ليتفق معه على أن ينقل أمتعته على عربتـه الي المحطة ليسافر فى قطار الساعة السابعـة فأوصاه الحداد بالاسراع فهرع جودفرى الى المنزل وجمع ملابسه وحزمها ثم نزل فوجد العربة فى انتظاره فركبها واذ ذاك وضعت الخادم خطاباً فى يده فدسه فى جيبه دون أن ينظر اليه ثم سارت العربة مسرعة الى المحطة

قال توما الحداد

ـ انك تسير مسرعاً على غير العادة يا سيدى جودفرى . هل تنوى العودة بعد قليل ؟

ـ كلا ياتوما . لا أعود الا بعد مدة طويلة

فقال توما بعد هنيهة

ـ أظن انه كان هناك برق مع هذه الامطار ولو اننى لم أسمع رعداً والا كيف سقط تمثال الرخام العظيم الذى نصب فوق قبر اللادى جونيا وتهدم ؟

فنظر اليه جودفرى وقال

ـ كف عن هذا الحديث الفارغ . هل كنت هناك ؟

ـ لم أكن هناك بالضبط يا سيدى جودفرى بل كنت قريباً من هناك مع شخص أو شخصين ولما سمعت أصواتاً ترتفع على غير العادة نظرت من فوق سور الكنيسة واذ ذاك أقول الحق رأيتك وقد ضربت هذا الثور وألقيته أرضاً مع التمثال المصنوع من الرخام وأبيك

فقال جودفرى

ـ لم أستطع احتمال أقواله يا توما وكاد عقلي يذهب جنونا

ـ لا عجب يا سيدى بعد ما ضربك على رأسك بمظلته ولو كنت فى مكانك لفعلت فعلتك . لقد شاع الامر وذاع فى القرية وعلم به الصغير قبل الكبير . اذا كنت تعمل بنصيحتى يا سيدي جودفرى فاقفل الباب دائما وراءك اذا أردت التودد والمغازلة فقد رأيت أباك وهو يتجسس عليكما ولما ذهب الى «هوك هول» لمقابلة السر جون عولت على أن أخبرك ولكنى وجدتك منهمكا فأشفقت عليكما ولم أشأ أن أعكر صفو ابتهاجكما ولو اننى أود الآن لو اننى فعلت ذلك

فتأوه جودفرى ولزم الصمت

عاد توما الى الكلام فقال

ـ قضى الامر الآن . لقد تألمت نفوسنا لهذا الحادث

ولكن بالله لا تحزن يا سيدى جودفري فانها فتاة مستقيمة مخلصة واذا لم تكن فان هناك فتيات كثيرات وفوق ذلك فالأيام تتلو الأيام ولا حزن يدوم ولا هناء . . ها قد أتي القطار فالى الملتقى يا سيدى . ليكن الله معك

وصل جودفرى الى المحطة وعلى أثره وصل القطار فركب فى عربة خالية ومعه حقيبته ثم غطى وجهه بيديه لكي لا يرى شيئاً من تلك المحطة المشئومة التى لا يغادرها الا وهو كليم القلب حزين الفؤاد

هكذا سافر جودفرى دون أن يرى أو يسمع شيئاً بعد أن ذاعت قصته شرقاً وغرباً

مسكينة اليصابات !

نعم مسكينة هذه الفتاة ولكنها لم تتألم وحدها لان العطف كان شديداً نحوها ونحو حبيبها من جانب السكان الذين اشتد استياؤهم على السر جون والاسقف ولا سيما الاخير . وفى الواقع أعربت القرية عن عطفها الشديد نحو العاشقين وغضبها نحو الجاسوسين باعلان اعتصابها فلم يهتم أحد بالسر جون وألقى المستر نيت عظته يوم الاحد على جدران الكنيسة ومقاعدها . وقد استمر الحال على هذا المنوال أسبوعاً بعد آخر وتوترت العلائق بين السر جون والمستر نيت بحيث لم يجد رئيس الاساقفة — وكان قد سمع بالقصة أيضاً — حلا الا أن يرسل المستر نيت الى

جهة أخرى . وفعلا رحل الاسقف إلي ابرشية أخرى بعيـدة خالية من السكان تقريباً حيث أقام البقية الباقية من حياته دون أن يرى الصبي أو « هوك هول » مرة أخرى

****

وضع جودفرى يده في جيبه ليبحث عن علبـة الـكبريت ليشعل غليونه فعثر على الخطاب الذى دسه في جيبه عند مغادرة المنزل فاخرجه ونظر إلي غلافه فعرف الخط المـكتوب عليه في الحال وعول على عـدم قراءته اذ علم من الخط وطابع البريد انه من مدام رينس ومع ذلك تغلب عليـه حب الاستطلاع ففض غلافه واذا به مايلى :

« آه . ياصديقي الصغير وابنى فى الروح جودفرى . أقول دون أى تردد انك ظننت ان « المـدام » العجوز المسكينة قد ماتت بعد ماانقطعت عنك أخبارها مدة طويلة . كلا ياجودفرى الصغير ولو انه لايليق بى الآن أن ادعوك صغيراً لانـ كرتى البللورية تنبئنى انك أصبحت طويل القامة عريض المنكبين وانك صرت رجلا جميل الطلعة حسن المحيا . اعلم ياجودفرى انني أسمع أموراً عنك أحياناً لاسـيما من الروح التى تسمي « الينور » . وانى احذرك من شرها إذ لاتنس أن الناس لايتغيرون بالسهولة التى تزعمها . ان المرأة تبقي دائما إمرأة — سواء كانت جسداً أو روحا — تغار دائما ولا تستطيع أن تتحمل رؤية حبيبها يتحول

عنها إلى غيرها كما فعلت انت مع « الينور » وعلى ذلك ستنتقم منك اذا استطاعت كما تنتقم المرأة وهى على قيد الحياة . وكذا سمعت عن بعض أحوالك من مس اجليفي أو بالحرى من روحها لانها مغرمة بك غراما عظيما وهى تحاول أن تحميك من «الينور» وقد وقع بينهما نزاع كبير بشأنك

« علمت مما استقيته من الموارد المختلفة انك نجحت فيما يسمونه بالامتحانات وان أمامك مستقبلا باهراً ولكن لاتظن انك ستكون سعيداً ياجودفرى لانك لاتحظى بتلك الفتاة التى تريدها الا بعد مدة طويلة جداً واذا حظيت بها لاتقضى معها الا وقتا قصيراً جداً يكفي فقط لتقبيلها وقولك لها « آه ياحبيبتي ما أجملك ! » ثم بعدئذ تودع الدنيا إلى عالم الارواح

« وستقضي أيامك في خلال ذلك فارغاً جوعان لانك لست واحداً من أولئك الذين يكرهون المرأة وهو أحسن شيء في الحياة للرجل وهو شاب . . . أن ثمار المرأة كثيرة توجد على كل شجرة فلماذا لاتقطف منها وتأكل ما تشاء قبل أن يحون الوقت الذى لاتستطيع أن تأكل فيه شيئاً ؟ لذا أرى مستقبلك سيئاً ياجودفرى لانك تنتظر أن تأكل التفاحة الجميلة البعيدة التى لاتستطيع أن تراها أو تلمسها أو تذوقها فى حين يتساقط التفاح الجميل الآخر فى أيدى أناس كثيرين

« اعلم ياجودفرى انك إذا ماحصلت على تفاحتك الكبيرة

الجميلة وبدأت تقضمها باسنانك يأتى شيءما فيلقيها بعيداً عن فمك ولا أدرى ما هو لان الارواح لم تخبرنى به . وربما كانت تجهله لانها لاتلم بكل شيء . ولكن ثق ياجودفرى أن شيئاً ما سيلقى تفاحتك بعيداً عن فمك . واذا ما وقع ذلك لاتنس أن الذنب ذنبك لانك لو كنت وثقت بأمك رينس لما أصابك شيء من ذلك لانها كانت تريك كيف تحصل على تفاحتك وتأكلها إلى النهاية وتلقى بذورها ثم تحصل على غيرها وتكون سعيداً فرحاً — ممتلئ البطن بدلا من أن تكون جوعان . . . هكذا الحال . ولكن هناك أمل واحد وهو أن تأتى إلى أمك فتعلمك كيف تعيش سعيداً تحصل على كل ماتريد . ان أمك فقيرة فهل لك أن ترسل اليها مبلغاً يسيراً من المال بعنوانها فى ايطاليا لان الاسقف الشيخ لايزال بما لديه من قوة وسلطان يحول دون رجوعها إلى سويسرا حيث لها اصدقاء ؟ أراك تحب تلك التفاحة الجميلة الكبيرة وتشتهى أكلها فتعال إلى امك وهى تريك كيف تقتطفها من شجرتها حالا . نعم . قبل مضى سنة واحدة والا فستبقى فوق شجرتها عاما بعد عام الى أن تذبل وتتلاشى على أثر لمسها . وبعد ذلك ياولدى ... وبعد ذلك ياعزيزى جودفرى — حسن . ربما أخبرتك بما هنالك فى فرصة أخرى

« أمك كونتس رينس »

« التى لاتزال تحبك على رغم معاملتك السيئة »

دس جودفرى الرسالة في جيبه ثانية وهو يشعر بألم عقلي وجسماني ثم قال فى نفسه : ترى كيف علمت هذه المرأة المروعة كل ذلك عني وعن أحوالي ولماذا تنبئنا بكل هذه الامور المزعجة وفوق ذلك اذا كانت معلوماتها صحيحة فلماذا لا تكون تنبآتها صحيحة كذلك ؟ واذا كانت تنبآتها صحيحة فلماذا كتب على أن أتحمل كل هذه الآلام ؟

لم يجد جودفرى جواباً على هـذه الاسئلة ولكنه أرسل خطابها فيما بعد الي المستر بوزيت فى سويسرا وفى الوقت المناسب ورد اليه الرد وقد تضمن أقوالا حكيمة فيما يتعلق برسالة مدام رينس وبآلامه التى أصابته على يد أبيه لان جودفرى كان قد أبلغه القصة بحذافيرها .ومما قاله المستر بوريت ما يلى :

« انك تعانى آلاماً شديدة ياولدى لا تدرى ولا أحد يدرى سببها ولكن اعلم ان الآلام لا تصيب عادة الا الاخيار .أما السر في ذلك فلا يعلمه أحد. ان الاشياء الثمينة لا تكتسب الا بالمتاعب والآلام . أما السر فلا نعلمه أيضاً . لقد أصابت هذه المرأة الخبيثة فى اسناد كل شئ الي عالم آخر . ثق ياولدى باننا سنعرف أشياء أخرى جليلة اذا ما غربت شمس حياتنا ثم أشرقت فى سماء أخرى صافية . لا يهولنك تهديدات هذه المرأة وسر فى طريقك ولا تخش شيئاً لان الله فوق الجميع وليس الشيطان »

وجد جودفرى فى رسالة الاسقف أعظم تعزية . على أنه لما

كان لا يزال شاباً فقد ارتكب غلطة ذلك انه أرسل الى مدام رينس حوالة ماليه بعشرة جنيهات دون أن يرفقها بخطاب من عنده وهو جنون لم يمنع مدام رينس عن ارسال رسائلها اليه

ذهب جودفرى على أثر وصوله الى المدينة الى " همستد ". وهناك دهش اذ وجد كل شيء معداً لاستقباله

قالت مسز بارسن

ـ لقد توقعت قدومك ياعزيزى

فقال جودفري

ـ كيف ذلك وقد أبلغتك انني سأقضى شهراً ؟

ـ كيف ذلك ؟ لانني واثقة بان الخل والزيت لا يختلطان معاً فى زجاجة واحدة . انك صرت الآن رحلا فلا يمكن أن تقيم مع أبيك فى بيت واحد .. ولكن ربما حدث هناك أمر آخر

فأخبرها جودفرى بكل شيء ولما فرغ اطرقت قليلا ثم قالت

ـ ليس لدى ما أقوله ياولدى . ان الانسان ليحار فى ادراك كنه هذه الحياة . لاأدري لماذا تقع مثل هذه الامور ... كلا كما — وأعنى انت واليصابات — جدير بالآخر يحب كل منكما رفيقه حبا يقرب من العبادة كأنك خلقت لتكون لها وكأنها خلقت لتكون لك فلماذا لا تقترنان وتعيشان فى هناء وسرور ؟ ماذا هناك بين شاب وفتاة مثلكما

فقال جودفرى متأوها

ـ لا أدرى

ـ كلا . ولا انا . ومع ذلك يأتى هناك شيء بينهما . ما معنى كل ذلك ؟ لماذا يسير كل شيء فى اتجاه مضاد في هـذا العالم ؟ هل هناك شيطان يعرقل حركة العالم أو أن الامر مجرد فرصة ؟ لماذا لايحظى الناس بأمنيتهم متى أرادوا بدلا من أن يرغموا على الانتظار حتى تقل رغبتهم فيها أو يموتوا قبل أن يحظوا بها أو تضيع منهم فلا ينالونها ؟ لاتستطيع أن تقول لماذا ولا استطيع أنا أيضاً على أننى أرجو أن يسير كل شيء فى مجراه الحسن

فقال جودفرى دون أن يجد في قولها شيئاً من العزاء .

ـ أرجو ذلك يا أماه

ثم ذهب الى غرفة نومه وبعدهنيهةعادوهويحمل علبةصغيرة بداخلها الخاتم المحلى بحجرين من الفيروز وهو الخاتم الذىاشتراه منذ أعوام من لوسرن ثم قال

ـ لقد أقسمت أن لا أكتب الى اليصابات فعليك أن ترسلى هذا الخاتم اليها وستعرف كل شيء عنه لأنني اخبرتها به

فقالت مسز بارسن

ـ نعم سأرسل اليها هـذا الخاتم وقد أحسنت ياسيدى لانه سيخفف من آلامها كثيراً

تلقت اليصابات الخاتم في الوقت المناسب ثم ردت العلبة الصغيرة ثانية باسم مسز بارسن وأرسلت فى داخلها خاتماً آخر من الذهب

العتيق الروماني يرجع عهده الى ألفي سنة . وكان قد صنع خصيصاً لتقدمه إحدى الاميرات الى خطيبها في حفلة زواجها . وقد لفته اليصابات بورقة كتبت فيها

„ وجد هذا الخاتم في قبر عتيق وقد أعطته والدة جدتي الى والد جدي في حفلة عرسهما منذ مئة عام فلبسه طول حياته كما فعل ذلك شخص آخر في العصور الاولى . والآن تعطي ابنة الحفيدة هـذا الخاتم الي شخص هو كل أملها في الحياة فليلبسه طول حياته مهما أصابها أو أصابه ثم ليعد الخاتم بعد ذلك الى القبر فقد يلبسه آخرون يأتون بعدنا بأجيال ،.

أدرك جودفري مغزى رسالة اليصابات فلبس الخاتم في بنصر يده اليسرى حيث بقي ليلا ونهاراً ، عاماً بعد عام

انتهى الامر عند هـذا الحد وتلى ذلك سكون وظلام بقي عشر سنوات أو أكثر فلم يسمع جودفري عن أبيه شيئاً ولم يراسله هو أيضاً . وفي الواقع كان أول نبأ سمعه جودفري عن أبيه هو نبأ موته بعد سبع سنوات انقضت على فراقهما . ولو لم يخلف المستر نيت أملاكا بسيطة آلت الى جودفري بحق الوراثة لما تـكبد شخص واحد مشقة الـكتابة اليه . وقد وجد جودفري ضمن أوراق أبيه فيما بعد الخطاب نفسه الذى كتبته اليصابات اليه وسرقه أبوه

لم يتلق جودفري كلمة واحدة عن أبيه وهذا يدل على ماهية

أخلاق هذا الرجل الخبيثة فقد كان على رغم وصاياه الدينية وتمسكه بمبادئ الكتب المقدسة لايعرف معنى الصفح ولو كان هو المخطئ . اذ أى ذنب جناه جودفري اذا كان قدأحب فتاة اتفق أن والده لايحبها ؟

هكذا مات المستر نيت وهو يحمل حقـدة فى صدره وقد شاءت العدالة أن لا يحرم هذا الرجل ابنه من إرثه القليل الذى يقدر بنحو الفى جنيه وهو كل ما ادخره فى أيام حياته. على أن جودفرى أنفق هذا المبلغ فيما بعدعلى إصلاح كنيسةالديرو ترميمها

تأثر جودفرى من أخلاق ابيه وسلوكه هذا على رغم ما كان بينهمامن التنافر منذ نعومة اظفاره وهاله أن يذهب أبوه الى ظلام القبر يحمل معه حقده وغضبه ولم يدر هل لا تزال نيران هذا الحقد تتزكى فى قلبه كما انه لم يدر الغاية من ذلك كله ولماذا خلق ابوه على هـذه الصورة المروعة ؟ لم يجد جودفرى جوابا على سؤال واحد من هذه الاسئلة ولو أنه التمس لأبيه العذر من جهة أخرى قائلا انه ضحية لغريزة ورثها عن ابائه

أمافيما يتعلق باليصابات فقدبقى الامر مظلما كذلك فقد حافظ كلاهما على عهده وبر بوعده بحيث اذا استثنينامسألةتبادل الخاتمين فانه لم يحاول أحدهما أن يراسل الآخر مباشرةأوغيرمباشرة. وقد علم جودفرى من مسز بارسن ان منزل «هوك هول» قفل وأن السرجون

وابنته يعيشان فى لندن أو فى مكان آخر اشتراه السر جون فى اسكتلندا ثم أرسلت اليه مربيته مرة أنها رأت اليصابات فى عربة وأنها فى صحة جيدة ولكن تظهر عليها علامات الهدوء والجد

هذا كل ماوقف عليه جودفرى من أنباء اليصابات في خلال الاعوام العشرة لانها لم تكن من الذين يعلنون عن حركاتهم فى الصحف . وكان جودفرى يهتم بقراءة الصحف لا سيما اعلانات الزواج والموت ولكن لحسن الحظ لم يجد شيئاً يتعلق بها. وكان يعلم أن السر جون لا يزال على قيد الحياة لانه كان يعثر من وقت الى آخر على اسمه فى قوائم المتبرعين لبعض الجمعيات الخيرية

هكذا أسدل ستار كثيف مظلم بين اليصابات وجودفرى لم يستطع أحدهما أن يشق حجابه . على أن اليصابات كانت تقف على أنباء حبيبها بوسيلة ما وتعلم تفاصيل حركاته بحيث لما علم جودفرى فيما بعد كل شيء دهش كل الدهشة اذ رآها عالمة بكل شيء أصابه ومنها أمور كان يود أن تكون دائما في طي الكتمان ولكنها أنبأته بتواريخ هذه الحوادث والظروف التى وقعت فيها وغير ذلك . وهكذا لم تحل ألوف الاميال التي كانت بينها وبينه من معرفة أخباره بحذافيرها

لم يكن جودفرى محروما من وسائل التعزية لانه لم يشعر مرة بانه فقد حبيبته أو انها بعيدة عنه بل كان يخيل اليه دائما

كما لو كانت فى الغرفة المجاورة أو فى الشارع المجاور . ولا عجب فان هنالك أناساً من ذوى العقول الحساسة لاينسون ذكرى أو حادثة وقعت أثناء حياتهم . ولعمري صدق من قال أن الموتى لا يموتون حقيقة الا اذا نسيت ذكراهم ومثل هذا القول ينطبق على الاحياء فانهم لا يكونون بعيدين عنا طالما لم ينسوا ذكرانا وفوق ذلك يعلم بعض الناس أنهم القوا فى زوايا النسيان اذ تشعر قلوبهم اذ ذاك بأن الباب قفل بينهم والطريق سدت

أما فيما يتعلق بجودفرى واليصابات فقد كانت الطريق فسيحة والباب دائما مفتوحا . واذا كانت البحار الواسعة قد فرقت بينهما ولم تصل اليه همسة فوقها فقد كان يشعر دائما بطيفها يأتى اليه مجتازا العالم لاسيما وقت الليل عند مايذهب الى فراشه وربما كان ذلك لخلو الذهن وقتئذ من المشاغل الاخرى بحيث لم تمض عليه ليلة واحدة لم يخيل اليه فيها ان اليصابات الى جانبه

وقصارى القول أيقن جودفرى ان حبيبته لم تنسه وأنها وهي فى انكلترا تفكر فيه وهو فى الهند دون غيره . وكانت هذه الفكرة وهذا الاعتقاد عزاءه الوحيد في خلال كل هذه السنين الطويلة التى قضاها بعيداً عنها

بيد أن حياة جودفرى فى الهند لم تكن خالية من معنى

السعادة بل كانت حياة جد وعمل فقد أظهر نشاطا عظيما فى عمله ونجح الى حد معين وكان موضع اعجاب أصدقائه لاسيما صديقه الحميم آرثر نوربورن الذى كان يلازمه ملازمة الظل . وكان جودفرى يشتغل كغيره بالصيد في غابات الهند فكان يقتنص الفهود والنمر . على انه كان يشعر على رغم ذلك كله بوحشة العزلة والانفراد

الفصل الثامن عشر

«فرنسا ــ وما بعدها»

لم يقع شيء يذكر فى خلال السنوات العشر التى قضاها جودفرى فى الهند اذا استثنينا حادثا أو حادثين فقد وقع مرة في ورطة لم يكن فى الحقيقة المسئول عنها فخرج منها بسلام

أما الحادث الآخر فكان أشد وقعاً اذ كلفه فقد صديقه الحميم ارثر ثوربورن . وخلاصة الحادث أن بعض القبائل الثائرة في الهند أوقدت نار الفتنة على الحدود فارسل جودفرى وكان اذ ذاك ضابطا فيهيئة أركان حرب الجيش الهندى الى أحدالمخافر الامامية مع صديقه ثوربورن وتولى القيادة هناك واتفق أن خرج ثوربورن بنصف الحامية ليقوم بحركة استطلاع فالتقى بالعدو ودارت بين الفريقين معركة حامية انتهت باستئصال شأفة القوة الانكليزية ولكن بعد ان تكبد العدو خسارة جسيمة علي يدجودفرى حملته على طلب الصلح واظهار الولاء لحكومة

الهند. وقد أكبرت الصحف الانجليزية من شأن انتصار جودفرى وعدته فوزاً باهراً وأنعمت عليه حكومة الهند بوسام الخدمة الممتازة ورقى الى رتبة ماجور

حزن جودفرى حزناً شديداً على فقد صديقه آرثر وشعر فى الحال بظلام الوحشة مخيما فوقه ثم تجددت جميع آلامه التى كان قد نسيها منذ وفاة مس اجليفى واشتدت وطأتها عليه بحيث لازمته الكآبة والحزن فاضمحلت صحته وأصيب بحمي شديدة ولما شفي منها قرر الاطباء ارساله فى الحال الى انجلترا باجازة ستة شهور

ان معظم الناس يبتهجون بمثل هذه المنحة . ولكن جودفري على عكس ذلك لم تكن له رغبة شديدة فى العودة الى انجلترا حيث لم يشأ — اذا استثنينا مسز بارسن — ان يري احداً عدا شخص واحد حلف ان لا يراه نعم كان فى استطاعته ان يتحمل ذلك وهما بعيدان ولكن كيف يكون مع اليصابات فى مدينة واحدة ويمنع من سماع صوتها او لمس يديها ؟ لم تكن لجودفري يد فى هذه المسألة التى دبرتها يد القدر ومع ذلك عول فى نفسه على ان يذهب الى لوسرن ليقضي اجازته مع الاسقف بوزيت في قصر اجليفي

أبحر جودفرى من الهند فى اوائل شهر يوليو سنة ١٩١٤ ولما وصلت به السفينة الى مرسيليا وجد وجه العالم مكفهرا باشاعات غريبة عن نشوب حرب طاحنة فى أوربا فسمع أن روسيا تعبىء

جيشها وان المانيا تعبيء جيشها وأن فرنسا تعبيء جيشها وقيل أيضاً أن انكلترا قد تخوض غمار الحرب ومع ذلك لم يقف جودفرى على ماينشفي غليله . وكانت الصحف الانكليزية التيعثر عليهاقديمة لاتشتمل الا على أقوال مقتضبة غامضة

اضطرب جودفرى كغيره فارسل تلغرافاً الى وزارة الهند لتسمح له باجتياز أرض فرنسا اذ كان تحت قيادته عدد من الجنود العائدين الى انكلترا ولكن لم يصله الرد قبل أن تبحر باخرته فاضطر والحالة هذه أن يسافر بطريق البحر الطويل . وفي النهاية وصلت الباخرة الى ميناء « سوثمبتون » حيث تلقي تلغرافا بالحضور في الحال فسافر الى لنـدن ولم تمض ثلاث ساعات حتى كان فى وزارة الهند فادخـل الى غرفة موظف كانت تبدو على وجهه علامات الارتباك والقلق فابتدر جودفرى قائلا

ـ هـل أنت الماجور جودفرى نيت ؟ حسن . ان اوراقك أمامي وهي كلها تشهد لك بالشجاعة والاقدام على انني أراك فى جازة مرضية فهل أنت مريض الي حد لاتستطيع معه الخدمة ؟

فقال جودفرى

ـ كلا ياسيدى . لقد عادت الى صحتى أثناء السفر وأشعر الآن بصحة تامة

فقال الموظف

ـ ان ذلك من حسن الحظ ولـكن لابد من ارسالك الى

الطبيب لتحقق من حالتك الصحية .اذ الطبيب فى الدور الاسفل فاذهب اليه ليفحصك وائتنى بالتقرير

عاد جودفرى بعض نصف ساعة الى غرفة الموظف يحمل شهادة الطبيب الدالة على حسن حالته الصحية فتناولها الموظف وقال

ـ حسن . سأرسلك الى وزارة الحربيـة حيث أعينك تليفونياً في مركز اختاره لك

فقال جودفرى

ـ ماذا جرى ياسـيدى ؟ انني غادرت الباخرة منذ ساعات قليلة ولا أعلم شيئاً عما يجري الآن فى العالم

فقال الموظف بلهجة تنطوى على الجد

ـ اعلم أيها المـاجور نيت باننا سنكون فى حرب مع المانيا قبـل انقضاء اثنتى عشرة ساعة . اننـا فى حاجة الى كل ضابط نستطيع الحصول عليه . سوف لايلحقونك بهيئة اركان حرب الجيش ولـكنى أظن أنهم سيلحقونك بألاى فى الحملة البريطانية الآن أستودعك الله وأتمنى لك السلامة

فصافحه جودفرى ثم خرج قاصدا وزارة الحربية حيث التحق بألاى من الجنود الانكليزية وبعد يومين أو ثلاثة وجد جودفرى نفسه على الباخرة مسافرا الى فرنسا

***

بقيت ذكرى الشهر التالى دائما في عقل جودفرى كـكابوس

كان يسير فيه فوق سهول ملطخة بالدماء وتحت سماء معتمة شديدة البرق والعواصف

عبثاً يحاول الانسان أن يصف المخاطر والاهوال التي لقيتها فرقة الفرسان التي التحق بها جودفرى والتي يكفيها فخراً انها اشتركت مع الجيش الذى سماه امبراطور المانيا « جيش انكلترا الصغير الحقير » فى تقهقره المشهور من مونس وهو التقهقر الذى انقذ فرنسا والعالم المتمدن

قام جودفرى بواجبه خير قيام وأبلى بلاء حسناً فى معركة أو معركتين ولكنه كان فرداً بين ثمانين الفاً

عاد جودفرى يترنح مع الباقين وقد أنهكه التعب وأضناه عدم النوم وهو يقاتل ويقاتل ويقاتل وعقله ممتلئ تارة بالاضطرابات لهول الاعمال التى يستطيعها الانسان وأخرى اعجابا بالروح التى تنعش النفس متى كانت واثقة من انها تدافع عن حق مقدس ومبدأ شريف وقد رأى الرجال يستخفون بالموت ليلا ونهاراً ويقابلونه بثغر بسام . ولكن ترى مامعنى ذلك كله ومن هذا الذى يسيطر على المسكونة بسيفه اللامع المخضب بالدماء ؟

أخيراً هدأ التيار واضطر النسر الالمانى أن يتخلى عن باريس التي خالها بين مخالبه واذ ذاك وقعت تلك المعركة الجليلة الشأن . وكان جودفرى يتولى قيادة فرقته — لان جميع الضباط الذين

كانوا فوقه فتسلوا فخاض غمارها مع رجاله وأظهر من ضروب البسالة ماأثار اعجاب جنوده

وفى النهاية شعر جودفرى فجأة بصدمة ولكنه بقى حافظاً لشعوره لحظة أصدر فيها أوامره ثم ابتهج بالموت وبعد ذلك لم يشعر بشيء!

لما أفاق جودفرى وجد نفسه راقداً فى زواية فى غرفة كبيرة وقد أسدل عليه ستار ثم سمع أصواتاً فى الخارج خيل اليه أن بعضها آت من بعيد . وكانت هناك نافذة رأى منها مروجاً خضراء وأشجاراً وتماثيل وبعد هنيهة ازيل الستار وظهرت سيدة متوسطة العمر ترتدى ثياباً بيضاء تبدو عليها سيماء الهدوء والسكينة فانتفضت قليلا عند مارأته قد فتح عينيه وعلى وجهه دلائل الحياة

قال جودفرى وقد دهش لضعف صوته

ـ أين انا ؟

فقالت السيدة بصوت عذب

ـ فى المستشفى فى مدينة فرساي

ـ أحقاً ما تقولين ! لقد خيل الى انني في السماء أو فى مكان آخر يماثله

فتنهدت السيدة ثم قالت

ـ نعم . كنت قريباً من السماء أيها الماجور

فقال جودفرى بصوت خافت

ـ لا اتذكر

ـ بالطبع ولـكن لاتحاول ان تتذكر . انك أصبت بشظية قنبلة في الرأس وقد أجريت لك عملية جراحيه أو بالحرى عمليات وعندى لولا ذاك الجراح الماهر . . . ولـكن دع ذلك الآن

ـ هل سأشفى

ـ بلا ريب . لم يكن لدينا أقل شك فى ذلك منـذ أسبوع واحد وقدقضيت هنا نحو ثلاثة أسابيع كنا نخشىأن تمس أعصاب البصر بأذى ولـكن شكرا لله لم يصبك شيء من ذلك . الآن الزم الصمت والسكينة لانني لااستطيع ان اقضى اكثر من ذلك اذلدى آخرون أريد الاهتمام بهم

ـ شيء واحد . . . عن الحرب هل استولى الالمان على باريس ؟

عجباً ياسيدي . اذا كانو قد استولوا على باريس فكيف تكون الآن فى فرساى ؟ لاتهتم بشيء من ذلك واطرد جميع وساوسك عن فكرك

ثم ذهبت

سمح لجودفري بعد اسبوع بمغادرة فراشه وكان يحمل الى الحديقة ليتسلى في شمس الخريف مع غـيره من الجرحى . وقد وقف جودفرى بعـد ذلك على كل شيء يتعلق بانباء القتال فعلم

أن التيار الالمانى وقف وأن الفريقين أخذا يحفران الخنادق استعداداً للشتاء

وكان جودفرى منهوك القوى شديد الضعف يشعر بألم شديد فى الرأس كان يمنعه عن القراءة وهو ما أحزنه كثيراً . وهكذا انقضت الأيام الى أن تماثل قليلا للشفاء فتقرر ارساله الى انكلترا وفعلا لم يمض يومان حتى نقل بواسطة احدى سفن الاستشفاء الى انكلترا وهناك ارسل الى احدى مستشفيات لندن حيث تشاور الاطباء فى أمره فى اليوم التالى ثم سألوه عن أصدقاء له فى لندن يريد المقام عندهم فاجابهم بان ليس له أصدقاء غير مربية عجوز فى « همبستد » اذا كانت لاتزال هناك وانه لايريد المقام فى لندن فقرر الاطباء اذ ذاك إرساله الي توركوى ولكن كبير الاطباء عدل عن فكرته هذه فى آخر لحظة قائلا

ـ ان المسافة طويلة وقد يقضى عليه اثناء السفر

ثم تناول قائمة وقال

ـ حسن . هذا مكان قريب من هنا فلنرسله اليه وصاحبته من الاغنياء . ان المريض لايحتاج الى شئ غير الراحة والطعام الجيد وهما متوفران

ثم انصرف بعد أن حي جودفرى وكان هذا يصغي الى قوله دون أن يعلم الجهة المرسل اليها

حمـل جودفرى فى اليوم التالى على نقالة ولم يلبث أن وجد نفسه فى شارع « ليفربول » ومن ثم ركب عربة من عربات الاستشفاء فسأل الجندى الذى يرافقه عن المكان الذى يقصدانه ولـكن الرجـل كان يجهل الاسم على ما يظهر فسكت ولم يهتم جودفرى بالامر وتناول جرعة من الدواء وبعد هنيهة غلب عليه النعاس فنام . ولما استيقظ كان الليل قد أرخى سدوله فوجد نفسه يرفع فوق نقالة أخرى الى منزل مظلم لان الأوامر المشددة كانت قد صدرت بعدم اضاءة الانوار خوفا من الغارات الجوية ثم حمل الى غرفة نوم بديعة فى الطابق الأعلى حيث وضعه رجلان على فراش جميل ثم غادراه وحده

حار جودفرى أولا في معرفة المكان ولم يستطع أن يدرك عنه شيئاً . وأخيراً عرف ماهنالك . ولا عجب فقد كانت رائحة المكان مألوفة لديه . ثم سمع أصواتاً فى الردهة الخارجية فعلم انه لابد أن يكون فى حلم من الاحلام لان الصوت الاخير الذي سمعه يشبه تماماً صوت مـز بارسن فتبسم ثم أغمض عينيه وهو يسمع الصوت يقول

ـ كلا . ليست الاسماء لدى ولـكنها لابد أن تكون فى الطابق الاسفل . سأذهب وأرى

فتح البـاب فسمع جودفرى شخصاً يدخل وبعد هنيهة علم ان هذا الشخص إمرأة لان وقع اقدامها كان خفيفا . ولما كان

لايستطيع رؤية التى دخلت عليه لان عينيه كانتا مغمضتين تقريباً ولان النور كان محجوباً بحجاب كثيف — بقى راقداً في مكانه وهو لايدرى أين هو ولا من هى تلك المرأة

اقتربت المرأة من سرير جودفرى ثم انحنت فوقه لانه سمع حفيف ثوبها واذ ذاك أحس المريض بشعور غريب . فقد شعر كأن هنالك تياراً يتسرب منها اليه أو عاطفة شديدة كانت تتحول الى ألم شديد بفرح

أخـذت الفتاة المنحنية فوقه تتنفس بسرعة وتتصاعد من قلبها تنهدات عميقة وتأوهات تنم على ألم مبرح وشعور عميق

أخيراً قالت الفتاة بصوت خافت متوتر غير عادى

ـ لااستطيع رؤية وجهه . لاأستطيع رؤية وجهه !

ثم هرعت الى المصباح وازالت عنه الحجاب . واذ ذاك حول جودفرى رأسه وفتح عينيه

فماذا رأى ؟

آه ياربّاه ! رأى اليصـابات وهى منحنية فوقه ترتدى ثيـاب ممرضة ! ... نعم اليصابات بعينها .. هذا ان لم يكن قد مسه خبل

علم جودفرى في اللحظة التالية ان ما رآه حقيقة واقعة لا أضغاث أحلام اذ فاهت الفتاة بكلمة — بكلمة واحدة فقط ولـكنها كانت كافية قائلة

ـ جودفرى !

فقال بلهفة :

ـ اليصابات ! هذا أنت ؟

فلم تجبه بكلمة واحدة بل أنحنت فوقه وقبلته

قال جودفرى

ـ لاتفعلى ذلك .. تذكرى .. وعدنا

فاجابته بحنان قائلة

ـ اننى اتذكره . أمثلى من ينسى ؟ لقد وعدت أن لاترانى أو تأتى الى هذا المنزل ما دام أبى على قيد الحياة . حسن . لقد قضى أبى نحبه منذ شهر

واذ ذاك تساورتها الشكوك والريب فقالت في الحال

ـ ألم ترد المجئ الى هنا ؟

ـ أرد ! ماذا تقولين يااليصابات ؟ أى شئ آخر كنت أريده بل كنت أتمناه منذ عشر سنوات ؟ على أن قدومي الى هنا كان اتفاقاً

ـ اتعد مثل هـذه الامور اتفاقاً ؟ هل كان من حوادث الاتفاق عند ماوجدتك منذ عشرين سنة نائماً فى المدرسة وقبلتك فوق جبينك ؟ أو عند ما وجدتك نائماً منذ هنيهة بعد عشرين عاما ثم . . . ؟

ثم سكتت

فقال جودفرى متردداً :

ـ ثم قبلتني . . . ولكن لم تضعيها على الجبين. انني أجهل القبلة الاولى كل الجهل فأشكرك عليها يا اليصابات

فتوردت وجنتاها قليلا ثم كررت قوله قائلة :

ـ نعم لم أضعها على الجبين . لا أخالك تجهل يا جودفرى انني شديدة اليقين أسلم بأمور كثيرة بدون جدل . فاذا كنت مخطئة . . .

فقاطعها جودفرى قائلا :

ـ ما هذا ! لا تكبدى نفسك مشقة البحث لانك تعلمين أن ذلك مستحيل . ان عشر سنوات كعشرة آلاف سنة

فأطرقت اليصابات قليلا ثم قالت

ـ لا أدرى ! . . آه . يا الهي ! . . هل تظن يا جودفرى اننا سنعيش عشرة آلاف عام ؟

فأجابها بلهجة تنطوى على التأكيد والفرح

ـ بكل تأكيد يا عزيزتي . ما هي عشرة آلاف سنة ؟ يخيل لي انني رأيتك منذ مئة ألف عام

فصاحت اليصابات قائلة :

ـ لا تسخر مني

فقال جودفرى بلهجة تنطوى على العطف والحنان

ـ كلا يا عزيزتي . لست أسخر منك . انني عاشق دنف يا اليصابات والعشاق لا يكذبون

ـ اذن تظن ذلك صحيحاً ـ اعني العشرة الالاف سنة ؟

فقال بلهجد الجد .

ـ بالطبع ياعزيزتي .ألم يقل كل منا للآخر فى كنيسةالدير ان حبنا هو الحب الأبدى ؟

ـ نعم . ولكن الكلمات لانستطيع أن تخلق الأبدية

ـ كلا . ولكن الأفكار والارادةمن ورائهاتستطيع . لاننا نجني ما زرعوا

ـ لماذا تقول ذلك ؟

ـ لا أدرى ياإليصابات . ولكنى أعلم ذلك . لقد وصلنا في هذا العالم الى آراء غريبة حيث لايوجد شئ حقيقي غيرالموت وكل ما عداه أضغاث أحلام وهذا ما نسميه خليطاً من الحقيقة وغير الحقيقة .

شعرت اليصابات اذ ذاك بالسعادة تتسرب الىقلبهاونم ما كان يتجلى على وجهها الجميل من دلائل البشر والانشراح ـ على مبلغ ابتهاجها ثم قالت :

ـ اذا كنت ممن يعتقدون ذلك فأنت مصيب لان هذا رأيى ... ولكن ماهذه الترهات وماهذا الهذيان ؟ ألاتعلم ياجودفرى انى صرت طاعنة فى السن ؟

فتبسم جودفرى وقال

ـ نعم ولكنك أصغر مني بستة شهور

ـ ان الامر يختلف فيما يتعلق بالرجال . سوف لا تمضى اثنتى عشرة سنة أخرى حتى أكون امرأة عجوز

ـ ان ذلك محتمل لولا تلك الابدية التى أمامك

فاستطردت فى حديثها قائلة

ـ وفوق ذلك أراني ....

فقاطعها جودفرى قائلا

ـ أراك الآن أجمل منك منذ عشرة أعوام

فابتعدت عنه قليلا ثم تمتمت قائلة

ـ انك احمق ياجودفرى

فتح الباب اذ ذاك ودخلت مسز بارسن وكانت قد صارت طاعنة في السن ترتدى ثياب ممرضة وتحمل ورقة فى يدها ثم قالت

ـ لقد عثرت على ضالتى . هاهي القائمة ياسيدتي فاقرأى الاسماء لمدونة بها لأنى لاأستطيع ان اقرأ شيئاً بدون نظارتى

لاحظت مسز بارسن عندئذ شيئاً غير عادى فى موقف الاثنين فوقفت مترددة فتقدمت نحوها اليصابات كانها تريد أن تتناول القائمة من يدها ثم مالت نحوها وهمست فى أذنها بضع كلمات

فقالت العجوز

ـ ماذا ؟ اننى لا أفهم معنى ماتقولين . اخالك لاتجهلين اننى أشعر بضعف فى بصرى وسمعى ... اذكرى الاسم ثانية

فأطاعتها اليصابات وهمست فى أذنها مرة أخري

فصاحت المرآة قائلة

ـهو ! . . .هو ! ... جودفرى . ولكن الا تعلمين انك قد تكونين السبب في قتله . اخرجى ياسيدتى ولوانك رئيسة الممرضات وسأتولى انا الاهتمام به

وكان جودفرى يراقبها فرأى المرأة وقد أخرجت اليصابات عنوة تقريبا من الغرفة ثم قفلت الباب وراءها بالمفتاح وتقدمت الى جودفرى الي أن جثت على ركبتيها بجانب فراشه ثم نظرت الى وجهه لتتحقق منه وأخذت تقبله مراراً قائلة

ـهل عدت اليناسالما ياعزيزى؟ سوف لا أدع أحداً من الفتيات يحول بينى وبينك سواء كانت رئيسة أوغيررئيسة . دع شكوى الهوى الآن حتى تشتدوتقوي . آه . لم أكن أحلم برؤيتك مرة أخرى فشكراً لك يا ألله !

ثم أخذت تقبله وتباركه ودموعها الساخنة تتساقط فوق وجهه فتأثر حودفرى تأثيراً عظيما . واذا كانت هذه الدنيا مشهورة بالآلام معروفة بالمعاكسات فان من الغريب أن جودفري لم يصبه أقل أذى من جراء انفعاله هذا بل بالعكس نام نوماً هادئاً لم ينمه منذ استرد شعوره واستيقظ وهو ضعيف بالطبع ولكن دون أن يشعر بألم في رأسه

ولما هدأ بال اليصابات واطمأن قلبها فهمت جودفرى انه لا يزال مريضا وان عليهما أن يتجنبا كل عمل أوقول يثير العواطف فاذعن

لرغبتها واقتنع بذلك مكتفياً برقاده في فراشه وملاحظتها وهي تروح وتغدو أمامه وربما كانت تقدمه اليه من الأزهاروالورود لان الجو كان قد تغير فجأة فلم يستطع جودفرى الخروج

أخذ جودفرى يسترد قوته شيئاًفشيئاًوأخيراًبدأت اليصابات تتحدث معه وتخبره بماتاق الى معرفته منذ أعوام طويلة . ومما أخبرته به تفاصيل موت أبيها فقالت :

ـ ازدادت رغبته فى زيادة ثروته في المدةالاخيرة ولاأدري السبب فى ذلك

فقال جودفري

ـ اذن أظنك الآن ذات ثروة طائلة يااليصابات؟

فهزت رأسها وقالت

ـ نعم ذات ثروة طائلة لا أدري مقدارها لانني لم أكلف نفسي مشقة قراءة جميع الارقام التى لم تتم الى الآن . وفوق ذلك سأزداد ثروة عما قريب وسأخبرك الآن عن السبب . والغريب ان أبي مات بدون وصية فورثت كل شئ . وقد كان يريدأن يكتب وصيته ويضمنها شروطاً غريبة ربما لاتخفي عليك ولكن هذه الوصية لم تكتب

فقال جودفرى

ـ ولماذا لم يكتبها ؟

ـ لانه مات قبل كتابتها. هذا كل ما هنالك وتفصيل الخبر

انه عقد اتفاقاً عظيما مع الحكومة لتقديم عـدد كبير من السفن وكان هذا الاتفاق يأتى بأرباح طائلة جـداً تقدر بمئات الالوف من الجنيهات فلما تم الامر جاء أبي يحمل صورة من الاتفاق ولما كان قدشاخ فى الأعوام المـاضية وأصيب بضعف فى القلب فقد كان يستعين بالخمر على أداء أعماله . واتفق فى ذاك اليوم انه شرب كثيراً من الخمر فأخذ يكثر من الكلام واضطرنى الى البقاء لاصغى اليه وهو يفتخر بنجاحه العظيم

فسألها جودفرى قائلا

ـ وماذا فعلت ؟

ـ انك تعلم جيداً ماذا فعلت . ثار غضبي اذ لم استطع احتمال كلماته وغضب هو أيضاً وتهددنى قائلا « سوف لا ادعك ترثين جميع أموالى لاننى لاأستطيع أن أتركها تنفق فى الاعمال الخيرية بواسطة فتاة عجوز وهو أنت لانك لم تستطيعى أن تحظي بابن الأسقف حبيبك الذي أرجو أن يرسل الى الحرب ويقتل . سأقابل المحامي غداً لاكتب وصيتى التى سترينها لذيذة يوماً ما ». فأجبته بأن له أن يكتب وصيته كما يشاء ثم غادرت الغرفة ولوانه حاول أن يوقفنى . وبعد ذلك بنصف ساعة رأيت الخـادم وهو يجرى حول الحديقة حيث كنت جالسة وسمعته يقول

ـ تعالى الى السر جون ياسيدتي . تعالى الى السر جون !

ذهبت فوجدت أبى ملقى على الارض فى غرفة الطعام وقد

طفح الدم من فه . وكان دفتر جيبه على المنضدة مفتوحاً وكان قد كتب فيه بعض أرقام ولكنى لم أستطع قراءتها لانها كانت ملطخة بالدماء . ولما وصلت كان قد فارق الحياة بسبب نوبة أصابته فى القلب

فقال جودفرى

ـ هل هذه كل قصتك اللذيذة ؟

ـ نعم . لم يكتب وصيته ولذا ورثت كل شئ وقد حاولت أن الغى العقد الذى أبرمه أبى مع الحكومة ولكننى لم أستطع ولكن سنتدبر « نحن » فى الامر

فنظر اليها جودفرى وقال

ـ اظنك تعنين انك ستدبرين « أنت » فى الأمر

فتوردت وجنتاها ثم قالت

ـ لاأدرى ماذا اعي ولكن بما انى قلت « نحن »فسأحذو حذو الحكومة واتمسك بكلمتى هذا اذا لم تعارض أنت معارضة شديدة ياعزيزى

اعارض ! أنا اعارض

ثم تناول يدها القريبة منه وامطارها قبلات . واذ ذاك لاحظ جودفرى لاول مرة انها تلبس الخاتم الصغير الذى اشتراه من لوسرن وأرسله اليها بواسطة مسز بارسن فى مساء الليلة التي افترقا فيها وهو الرباط الوحيد الذى ربطهما طول تلك السنين

لفصل التاسع عشر

الزواج

كان شـفاء جودفرى فى هذا الجو المملوء بالسعادة والغبطة سريعاً . نعم كان جودفرى في سعادة ولكن هناك سعادة أخرى وراء هذه السعادة يجب الوصول اليها

لم يشرب هذا الرجل وهو الآن فى نحو الثلاثين من عمره من كأس الحب المعروف فى العالم . وقد يقول بعضهم أن هـذا من الاشياء العامة وهـذا صحيح فان الحب الكامل لا وجود له اللهم الا حب الله الذى لا يبلغه فى النهاية الا القليلون لان الـكمال من صفات الله وحده . فكل حب ناقص عدا حب الاموات الذى نظنه ثابتاً لا يتغـير وفيما عدا ذلك يأخذ الحب فى الضعف بمرور الايام . فالاولاد المدللون ينمون ويترعرعون واذ ذاك ينسون حسب قوانين الطبيعة

اذن ليس على الارض حب كامل فليبحث عنه فى مكان آخر

لم يشعر جودفرى — اذا استثنينا اليصابات — بعاطفة الولاء فى العالم الا نحو أناس قليلين وهم مسز بارسن والاسقف بوزيت وصديقه ارثر ثوربورن الذى توفى ولذا كانت اليصابات لديه كل

شيء . فقد كانت وهي طفلة موضع اعجابه ثم صارت وهي فتاة في مقتبل العمر أمنيته ومعبده ودينه

واذا كان هذا مبلغ حبه لاليصابات فقد كانت هي أعظم منه تفانياً وأشد شغفاً اذلم تهتم برجل غيره وكان في طبيعتها شيء يمنعها عن الاختلاط بأي مخلوق عدا جودفري . جودفري دون سواه منذ رأته وهو طفل صغير وأفرغت له كنز قلبها كله فصار منها الروح والنفس والجزء المتمم لحلقة حياتها الذي بدونه تكون حلقة مهشمة لافائدة منها

رسخ هذا الاعتقاد في نفسها بحيث أيقنت على رغم ضعف اعتقاداتها الدينية أن حبها هذا لا يمكن أن تكون له بداية أو نهاية وكانت اليصابات ترتاب في وجود حياة أخرى غير هذه الحياة ومع ذلك كانت تعلم علم اليقين أن حبها لجودفري وجد من قبل وأنه حب أبدي لا نهاية له

وقد لاحظ جودفري ذات يوم هذا التغيير فأنبأها به فقالت

ـ اذن أنا مخطئة

فقال جودفري

ـ في أي شيء تخطئين ؟

ـ في زعمي أن لاحياة بعد الموت . انني لا أرتاب قط في استمرار حبنا واذا كان ذلك معناه أننا نعيش كأفراد فقد يوفي ذلك بالغرض المطلوب

فقال جودفرى

ـ قد نعيش كشخص واحد

ـ ربما . واذا كان الامر كذلك كان ذلك خيراً وأبقي اذ لا يفترق أحدنا عن الآخر

في هذه الكلمات القليلة أعربت اليصابات عن اعتقادها . واذا كانت آلام العالم وويلاته قد نزعت من قلبها روح الايمان والثقة فقد ولد الحب تلك الروح فى قلبها اذ أيقنت أن الحب بدون الايمان يموت . وهكذا تغلب الحب على وساوسها واعتقاداتها الأخرى واخضع طبيعتها القاسية التى كانت لا تخضعها قوة قهرية أخرى حتى ولو شاهدت من المعجزات ما بهر عينيها

وكان حبها فوق ذلك صادقا عميقاً بحيث شعرت بأن أصله ومكانه ليس فى هذا العالم بل فى مكان آخر وهذا يعلل السبب فى أنها رضيت بأن يحتفل بزواجها في الكنيسة الامر الذى أدهش جودفرى

***

شفى جودفرى فى الوقت المناسب من جراحه فارسل الى الطبيب فقرر لياقته للخدمة ولكن رخص له بأجازة شهر فعاد بهذه الشهادة الى « هوك هول » وأراها لاليصابات فنظرت اليه وقالت

ـ وماذا يكون بعد انقضاء الشهر ؟

ـ اذن أظن أنه لا بد لي من أن التحق بفرقتي مالم أرسل الى جهة اخرى

فامتقع وجهها قليلا ثم قالت وهي لا تزال تنظر اليه

ـ أن الشهر مدة قصيرة جداً ياجودفرى

ـ نعم ياعزيزتى ولكن يمكن أن تقع فيه أمور كثيرة

ثم قال بلهجة المتردد

ـ خذى مثلا ... أننا نستطيع الزواج . هذا اذا شئت

ـ انك تعلم ياجودفري أن هذه غايتى الوحيدة منذ عشرة اعوام .

فسكت جودفرى هنيهة ثم قال بصوت عال يشبه الصياح

ـ وأنت تعلمين يااليصابات حق العلم أن هذه رغبتى ... منذ عرفت ماهو الزواج . ما قولك فى غد ؟

فضحكت وهزت رأسها ثم قالت

ـ ان هذا يكون مدعاة لسخرية الناس منا ياجودفرى . وفوق ذلك يجب أن اقوم ببعض تدابير لازمة فيما يتعلق بأملاكى

ـ اية تدابير ؟

فضحكت مرة اخرى ثم قالت

ـ هذا شأنى . انك تعلم انني من اعظم انصار حقوق المرأة

ـ آه . الآن ادركت غايتك . انك تريدين ان تجعلى املاكك بعيدة عن سلطة الزوج الخ

ـ نعم ياجودفرى . هذا ما أريد . انك كبير العقل وستشتغل بشركة الملاحة بعد الحرب

وبعد ذلك اتفقا على الزواج بعد أسبوع كامل واقترحت اليصابات عليه أن يقيم فى منزل الدير حيث ينزل ضيفاً على الاسقف الموجود هناك . وفعلا تم ذلك ونام جودفرى مرة أخرى فى غرفته التى كان يشغلها وهو فتى صغير

أما اليصابات فدعت خياطتها تليفونيا أولا ثم محاميها ثانيا لمقابلتها غداً

جاء الاثنان فى قطار واحـد فقابلت اليصابات السيدة أولا ولما فرغت من مهمتها طلبت المحامى ولما دخل ابتدرته قائلة

ـ سأتزوج فى الرابع والعشرين بالماجور جودفرى نيت الضابط بالجيش الهندى فارجو أن تعد وثيقتين الاولى أوقعها قبل الزواج والثانية وهي الوصية بعد الزواج مباشرة لان الزواج يفسخ الوصية اذا كتبت قبله

فدهش المحـامي لسعة اطلاعها حتى على مثل هـذه الامور الدقيقة القانونية وسألها عما تريد تدوينه فى الوصيتين فقالت

ـ إن الامر بسيط جداً . ستتضمن الوثيقة الاولى تعيين نصف دخلى لزوجى دون أن يكون لى حق الاشراف ويكون له حق الاستيلاء عليه مـدة حياتنا الزوجية . أما الوثيقة الثانية وهى

الوصية فستتضمن إعطاء كل ما أمتلك من أملاك وأموال وضياع له

فدهش المحامي لقولها هذا ثم قال

ـ يجب أن أقول لك ياسيدتي ان هذا العمل يعد من الاعمال غير العادية

ـ ان هذا شأني وأنا مطلقة التصرف

فقال المحامي

ـ لو كان السرجون حياً لرأى رأياً غير رأيك هذا

ـ ربما . لان آراءنا تختلف في كثير من الامور فقد خضعت كثيراً لارادته لما كان حياً على رغم ما كان يصيبني من الاحزان والخسارة ولكنه مات الآن فلي أن اتبع رأيي

فقال المحامي

ـ حسن . أيتها الآنسة . بالطبع سنطاع أوامرك ولكن لي ملاحظة على وصيتك هذه . لا تعديني فظاً اذا تجزأت على ان أقول انك لم تحسبي حساب ماقد تلدينه من الاطفال

ـ كلا . لا أعدك شيئاً من ذلك ولكن ألا تري انني الآن في نحو الثلاثين من عمري ؟ وعلى كل حال فكرت في هذا الامر فرأيت أنني اذا رزقت أولاداً ومت قبل زوجي فانه سيهتم بأمر مستقبلهم كما يراه ملائماً لهم واني واثقة من سعة عقله في مثل

هذه الامور واذا مات دون أن يترك وصية وهوما يحتمل قسم لارث فيما بينهم بالتساوى ، أن ثروتى طائلة تكفى أى عددمنهم

فقال المحامي متأوهاً

ـ هذا ان لم يخسرها أو يبذرها

فقالت اليصابات

ـ كلا . انى واثقة من أنه سيحفظ كل شئ ويكتفى بالانفاق على نفسه من دخله الخاص . الآن اذا كنت قد أدركت غايتى فالى الملتقى

ثم حيته فسار المحامى وهو يقول فى نفسه

ـ أنهم يقولون انها من أشد انصار النساء على رغم تكتمها ولكنى لا أصدق ذلك . وعلى كل حال أرى هذا الضابط سعيد الحظ ولا عجب فليس أحمق من امرأة عاشقة

سافر جودفرى الى لندن ليشترى لعروسه هدية فأخذ يتمشى فى شوارع المدينة الى أن عثر على عقد جميل من اللؤلؤ الصغير ثمنه ثلاثمئة جنيه فاشتراه . وقد نسى ان لدى اليصابات عقودا عديدة من اللآلئ الكبيرة . ومع ذلك ابتهجت اليصابات به ولم تلبس سواه فى حفلة الزواج هو والخاتم الصغير الذى اشتراه جودفري من لوسرن

دار البحث ذات يوم بين جودفرى واليصابات عن المكان الذى يقضيان فيه شهر العسل أو ما بقى منه فاقترح جودفرى أن

يسافرا الى لومرن لزيارة الاسقف ولـكنه وجد ذلك مستحيلا فى أيام الحرب فعرض عليها لندن فقالت اليصابات

ـ ولماذا وقع اختيارك على لندن ؟

فأجابها متبسما

ـ لان معظم السيدات لهن شغف زائد بدور التمثيل ولو اننى اعترف لك بأني لا أميل اليها

فقالت اليصابات

ـ ماهذا الهذيان ياجودفرى ؟ هل تزعم انى أريد ضياع الوقت سدى في دور التمثيل والملاهى مع انه ليس لدينا غير وقت قصير لنقضيه معاً ؟

وأخيراً استقر الرأى على أن يقضيا ليلة فى لندن ثم يسافران الى « كرنوول »

* *

جاء يوم ٢٤ ديسمبر من تلك السنة المشئومة وأعني بها سنة ١٩١٤ فاحتفل بزواجهما في كنيسة الدير احتفالا بسيطا جداً وكانت اليصابات ترتدى ثوباً بديعاً مطرزا بالحرير وعلى وجهها قناع بديع . ومن الغريب ان هـذا الثوب كان يشبه بالاجمال ثوب تلك السيدة التى قلدت ثوبها فى حفلة الازياء . وقد تكون اليصابات تعمدت ذلك أو كان من غرائب الاتفاق والصدف . وعلى كل حال كان القناع مرفوعاً من ناحيتين عن رأسها وقد تدلى

كقناع تلك السيدة المجهولة في حين تدلت أكمامها عند المرفقين حتي كادا يلمسان الارض

وكانت اليصابات تبدو يومئذ فى أجمل طلعة وأبدع صورة تلمع عيناها ببريق الفرح والابتهاج وهى واقفة بقوامها المعتدل الطويل فكانت فتنة للناظرين . وكانت الكنيسة على رغم سعتها مزدحمة بالسكان الذين جاءوا من القرية والقرى المجاورة لمشاهدة حفلة زواج اليصابات

وكان جودفري يرتدى بذلته العسكرية وعلى صدره أوسمته ونياشينه والى جانبه عروسه بثوبها الجميل فكانا موضع اعجاب الجميع .

أخيراً انتهت الحفلة وصارا زوجين

همست اليصابات في اذن زوجها وهما سائران جنباً الى جنب والكل عيون شاخصة اليهما — قائلة

ـ هل أحدثت هذه الكلمات والتقاليد الدينية وغير ذلك مما رأيت تغييراً في نفسك ؟ انها لم تؤثر فى أقل تأثير واعتقادى أن جميع الطقوس الدينية في العالم لا قوة ولا معنى لها أمام وحدتنا الأبدية .

لم يدرك جودفرى معني كلماتها فكان جوابه الابتسام . على أن كلماتها هذه عادت اليه فيما بعد فرآها حقيقة ثابتة فيما يتعلق بهما اذ لم تكن هناك روابط دينية تستطيع أن تزيد وحدتهما قوة

ذهب العروسان الى مكتب الابرشية حيث دونا اسميهما .
وكان بين الشهود الجنرال كوبيتى الذى كان وصياً على جودفرى
وبعد ذلك أراد العروسان أن يركبا السيارة الى « هوك هول »
ولكن التف حول اليصابات بعض رفيقاتها وصديقاتها وأخذن
يهنئها بحيث حان بينها و بين جودفرى فلم يجد هذا مندوحة من
الارتداد بضع خطوات الى الوراء فدخل الكنيسة وكانت حالية
اذ ذاك ولم يلبث ان شعر بضربة خفيفة على منكبه فاضطرب
وتحول ليرى من هذا الصديق فرأى أمامه امرأة غليظة الجسم
تلتف بثوب اسود لا يرى من وجهها غير عينيها الصغيرتين البراقتين
فعرفها جودفرى فى الحال اذ كانت مدام ريس بعينها

قالت المرأة بصوتها الغليظ الممقوت :

ـ آه . لقد كبرت الآن ياجودفرى من جميع الوجوه . هل
عرفت أمك العزيزة ؟ آه . لاتنكر ذلك . . . سمعت عما يجرى
الآن فجئت اليك . وقد أرسلت « الينور » أيضاً رسلها اد لاتنس
كما قلت لك أن الأرواح تغير كالنساء

فقاطعها جودفرى قائلا

ـ شكراً لك . أخشى أن أكون قد تأخرت

ـ نعم . نعم . انك تريد الفرار على عجل لانك الآن حصلت
على تفاحتك وتريد أكلها . اصغ الى أمك يا جودفرى . أن لدى
رساله لك فعليك أن تبذل جهدك لتأكل تفاحتك لانك ستصل

فى الحال الى البذور التى تعلم انها متحجرة لايمكن أكلها آه ان هنالك قوة تحملنى على أن أقول لك هذا أيضاً ولا أدرى ماهى وعلى كل حال اعلم انه يحتمل أن تزرع هذهالبذور فتنمو وتكبر الى أن تصير أحسن شجرة من أشجار التفاح ولكن اعلم انها ستزرع فى أرض أخري

ثم زحزحت قلنسوتها الى الوراء وكشفت عن جبهتها الغليظة ووجهها المجعد المكفهر وبعد هنيهة عادت الى الكلام فقالت

ـ نعم . أرى هذه الشجرة وهى يانعة بالازهار مثقلة بالثمار الذهبية — الوف فوق الوف . آه يا جودفري ، ان هده شجرة الحياة . والآن أراك جالساً تحتها مع تلك السيدة التى تشبه الملكات والتى تحبها وتحبك حباً صادقا لاقرار له وأراكما وقد أخذ كل منكما ينظر الى الآخر بعين لاتكل ولا تمل الى الابد . وهذه الشجرة ياجودفرى أبدية لاتفنى ليس لها مثيل على الارض

تسرب الخوف إلى قلب جودفرى من هذه المرأة الجهنمية كما يقولون ولا سيما من كلماتها الأخيرة التى فاهت بها على رغم ارادتها وعلم معناها وهو أن الموت قريب منهماوانهماسيدعوان أحدهما أو كلاهما الى مكان آخر غير هذا العالم

كرر جودفرى قوله قائلا

ـ يجب أن أذهب

ـ نعم . نعم . يجب أن تذهب — انك ذاهب الى مكان بعيد .

أن السمكة تجرى وراء الطعمة وهي لاترى السنار . أليس كذلك؟ ولكن لحظة واحدة ياعزيزي جودفرى . اعلم أن أمك التى تحبك عانت آلاما شديدة بسبب الفقر الذى أصابها منذ صب الاسقف عليها لعناته وهى الآن فى حاجة إلى نقود فهل لك أن ترسل اليها شيئاً بهذا العنوان ؟

ثم قدمت اليه ورقة فألقاها ثم وضع يده فى جيبه وأعطاها بعض أوراق مالية فاختطفتها من يده كما تختطف الحدأة قطعة من اللحم

وهكذا تخلص جودفري من هـذه المرأة المروعة ولم تمض دقيقة حتى كان مع عروسه فى السيارة وهى تسير بهما وسط هتاف السكان الى أن وصلا الى قصر « هوك هول » حيث جرت مقابلات غير رسمية وجد جودفرى نفسه فى خلالها وحيداً لان اليصابات كانت قد ذهبت مع الجنرال كوبيتى الى غرفة أخرى دون أن يراها فلما عادت سألها بشيء من الحدة قائلا

ـ أين كنت يا اليصابات ؟

فقالت بصوت رقيق وهي تبتسم في وجهه

ـ كنت مع المحامي لقضاء مهمة بسيطة

ـ أية مهمة ياعزيزتى ؟ كنت اظن انك سويت كل شيء هذا الصباح

ـ لم يكن من الممكن تسويتها صباح اليوم ياجودفرى لان الوصية لاتمضى الا بعد الزواج

فابتهج جودفري وقال

ـ اعطنى كأساً من الشمبانيا

***

لم تمض ساعة أخرى حتى كانت السيارة تسير بهما فى طريقها الى لندن وقد فتحت السماء بابها السابع لهذين الزوجين

تناول العروسان طعام العشاء فى فندق من فنادق لندن الكبيرة ثم جلسا معاً ليصطليا ويد كل منهما فى يد الآخر ولكن دون أن يتكلما كثيراً وأخيراً قامت اليصابات وبعد أن تعانقا قالت

ـ سأذهب الآن الى فراشى ولكن قبل أن تأتى الىّ أريد أن تجثو معى لنصلى الى الله

فاطاعها كالطفل الصغير وجاء الاثنان أمام الموقد كأنهما أمام المذبح والقت اليصابات صلاتها بصوت عال قائلة :

« أيها الرب الذى بحثت عنك طويلا حتى وجدتك الآن . أيتها القوة التى أرسلتنى لا ذوق طعم الحياة وأدرك المعرفة . أيها الخالق الذى تدعونى اليك متى أردت اصغ الى صلاة اليصابات وتوسلات جودفرى حبيبها ، هـذا ما يطلبانه منك : أن يبقى حبهما — سواء طالت حياتهما على الارض أو قصرت — أبدياً لايفني بعد انتقالهما من هذا العالم إلى عالم آخر . ويطلبان أيضاً

أن تغفر جميع ذلاتهما المعروفة وغير المعروفة ، صغيرة كانت أو كبيرة وان يسلكا سبيل الهداية والصلاح وأن تبارك أولادهما اذا شاءت ارادتك أن ترزقهما أولاداً وان تكون معهما طول الحياة . استجب يامانح الحياة والحب الأبدى وإصغ الى هذه الدعوات التى تقدمها اليك اليصابات وجودفرى في يوم زواجهما»

ثم قامت وبعد أن نظرت اليه نظرة طويله غادرته وهو لايرى أمامه فتاة من البشر بل حيل اليه انها نيران الحب الروحية قد تجسدت داخل قناع بشرى

الفصل العشرون

« الفراق »

لم يذهب جودفرى والبصابات إلى « كرنوول » لان الطقس تغير يوم العيد وساءت حالة الجو فقررا البقاء بضعة أيام في الفندق حيث كانا يقضيان وقتهما معاً فى غرفة الاستقبال الخاصة أو يخرجان ادا تحسنت حالة الجو قليلا إلى البستان أو الى المتحف القريب منهما للتسلية

وفى صباح اليوم الرابع لزواجهما وقعت الكارثة وكان جودفرى قد استيقظ فى صباح ذاك اليوم مبكراً فاخذ ينظر الى زوجته وهي نائمة بجانبه وقد سقط نور الفجر الضئيل على وجهها الجميل وكان محاطاً بأطار ذهبي هو شعرها الأصفر البديع

أخذ جودفرى يراقبها وهى على هذه الحال وقلبه يكاد يتمزق عطفاً وحناناً الى أن تنهدت في النهاية وتحركت قليلا ثم أخذت تتكلم وهي نائمة بصوت خافت قائلة

ـ آه . ياحبيبى .. ياحبيبى ! .. كيف عشت بدونك ؟ ولكن هذا قد انقضى الآن ولم يعد أحدنا يفترق عن الآخر حياً أو ميتاً

وبعـد هنيهة فتحت عينيها الفتانتين ومدت ذراعيها لتضمه الي صدرها وهو مبتهج لانه سمع من فمها ما لم يقصد سماعه

بعد ذلك بقليل سمع قرع على الباب الخارجي وصوت الخادم الصغير يصيح قائلا

ـ رسالة برقية لك ياسيدى

فدعاه جودفرى ليلقيهـا ولكن اليصابات انتفضت وامتقع لونها ثم قالت

ـ ترى ماذا تكون ؟ ليس هنالك أحد يعرف عنواننا

فقال جودفرى

ـ كلا . انهم يعرفونه . هل نسيت انك استفهمت تليفونيا أمس عن أحوال المستشفى فى « هوك هول » ؟

فصاحت قائله بصوت مضطرب

ـ ويحي . نعم قد فعلت

ـ لاتضطربى ياعزيزتي . ليس فى الأمر شئ وليس هنـاك من نخشى فراقه

ـ كلا . كلا. ولكن فؤادى يضطرب . اقرأ ماجاء في الرسالة ليطمئن قلبي

فقام جودفرى وتناول الرسالة ونظر اليها فوجد أنه مكتوب عليها كلمـة : « رسمي » فاضطرب قلبه أيضاً وذهب بالرسالة الى

غرفة النوم وفض غلافها وأخرج ثلاث ورقات مكتوبة بسطور ضيقة ثم قال

ـ يالها من رسالة طويلة !

فصاحت اليصابات بلهفة قائلة

ـ اقرأها . اقرأها !

فتلا مافيها . وكانت رسالة طويلة مرسلة من وزارة الحربية جاء فيهـا أن المراسـلات التى أرسلت اليـه فى « كرنوول » لم تسلم وأعيدت ثانية وأخـيراً علم من البحث فى « هوك هول » محل أقامته . ثم أمر بالحضور فى « صباح الغد » (وكان التلغراف مرسلا بتاريخ الأمس) لتسند اليه وظيفة ستبلغ اليه . وتشدد الرسالة عليه بالاسراع لان الباخرة ستبحر بعد أربع وعشرين ساعة

قالت اليصابات

ـ آه . هذا ماحدثتني به نفسى . هذه نتيجة توسط القائد الشيخ كوبيتى . ستسند اليك وظيفة فى مكان بعيد والا لما ذكروا ميعاد سفر الباخرة

فتظاهر جودفرى بالفرح بقدر ما استطاع ثم قال :

ـ أن مثل هذه الاشياء من الامور المنتظرة يا اليصابات

فاستطردت فى كلامها قائلة

ـ ياله من نبأ سيئ . ولكن أرى على كل حال أنهم سيسمحون لك بتمضية بقية أجازتك

خرج الاثنان من غرفة النوم ثم تظاهرا بانهما يتناولان طعام الافطار وبعد ذلك ركبا سيارة من سيارات اليصابات الى المصلحة التي ذكرت فى التلغراف

وصلت السيارة بهما قبل وصول الموظف الذى سيقابله جودفرى بساعة قضتها اليصابات فى السيارة ولما جاء هذا الموظف حيى جودفرى قائلا

ـ هل أنت الماجور جودفرى ؟ أن الجنرال كوربيتي صديقنا وفى الواقع هو الذى أعطانا فكرة اختيارك . نعم لا نجهل أنك تزوجت منذ أربعة أيام أو خمسة وأنه لم تمض مدة وجيزة على شفائك من جراحك وكنا نود اعطاءك شهراً أو شهرين علاوة على أجازتك ولكنى رأيتك رجلا حكيما واسع الاطلاع تؤثر الواجب وخدمة بلادك على كل ماعداه من أمورك الشخصية . ثم أقول لك أنه ليس ثمة ما يدعو الى قلق عروسك لاننا سوف لا نرسلك الى مكان محفوف بالاخطار بل بالعكس سوف لا تسمع صوت رصاصة تطلق ... اصغ الى أيها الماجور . لقد كنت ضمن هيئة أركان حرب الجيش الهندى وقد سمعت انك ذو قدرة عظيمة فى سياسة الوطنيين . والآن لا أطيل عليك الكلام فاعلم أننا في حاجة الى رجل مثلك فى شرق أفريقا يمنح سلطة تامة . وستكون مهمتك الاتصال دائما برؤساء القبائل فى أرضنا للاتفاق معهم على تقديم الرجال للاشتغال وراء خطوط القتال أو فى القتال

وغير ذلك واذا اسـتطعت فماوض رؤساء القبائل التي تقطن في المستعمرة الالمانية لاستمالتهم . وفوق ذلك هناك عدد كبير من الهنود وهؤلاء تعرف كيف تعاملهم . فأملنا أن تبـذل أقصى جهدك لخدمة بلادك من هـذه الوجهة . ان هذه المهمة جليلة الشأن كما ترى فاذا أحسنت القيام بها وهو ما أثق به فان مكافأتك ستكون جليلة الشأن أيضاً

« الآن لا أسألك هل تقبل ما أسـند اليك لاننا واثقون أنك لاترفض شيئاً في زمن الحرب . هـذا كل مالدى الآن . ولكن اعلم أنك ستلتحق فى الظاهر بخدمة القائد العام في شرق أفريقيا . وستتلقى تعليمات خصوصية ترسـل الى القائد العـام والحكومة المحلية صورة منها . هل فهمت الآن كل شيء وأن سلطتك ستكون واسعة النطاق وانك ستعمل فى الغالب ماتراه أنت مؤديا الى الغاية المطلوبة ؟

فقال جودفرى وهو يبذل أقصى جهده لاخفاء اضـطرابه الفكرى

ـ نعم فهمت كل شيء ياسيدى . وعلى كل حال سأتلمس الطريق أثناء سيرى

ـ نعم . هذا هو الصواب وهذه هى الطريقة نفسها التى نتبعها فى هـذه الحرب . الآن لا أريد أن تبقى أكثر من ذلك لان الوقت قصير . ستبحر الباخرة غداً على ما أعتقد فعليك أن تركب

آخر قطار مسافر الليلة الى سوتمبتون وسيقابلك ضابط فى محطة ووترلو مع التعليمات اللازمة فاذا لم يقابلك في المحطة ذهب اليك فى الباخرة . ستعرف كل شيء عن مرتبك وغير ذلك . اكتب تقاريرك بواسطة القائد أو الحكومة المحلية ولك أيضاً أن تكتب الينا مباشرة . الآن أستودعك الله وأتمنى لك السعادة

همّ جودفري بالذهاب ولم يكد يخطو خطوة واحدة خارج الباب حتى استدعاه هذا الموظف الكبير ثانية ثم قال له

ـ نسيت أن أهنئك . كلا . لا أعني تهنئتك بالزواج بل بترقيتك . هل بلغت الخبر ؟ حسن . سينشر غداً فى الغازيت الرسمية وسترسل اليك الاوراق بعد يوم أو يومين

فقال جودفرى

ـ أية ترقية ياسيدى ؟

ـ ترقيتك الى رتبة كولونيل بالطبع . لقد أبليت بلاء حسنا فى فرنسا كما تعلم ولعمرى أن رتبة كهذه لا تعد شيئاً بجانب الخدمات التي أديتها . . . الآن الى الملتقى

ذهب جودفرى وخاطب اليصابات وكانت لا تزال جالسة فى سيارتها تنتظره وقال لها بابهام

ـ أخشى ياعزيزتى أن أرى نفسي مضطراً الى أن أسألك أن تذهبي معى الى مخازن الاطعمة المجاورة هنا

فقالت اليصابات

ـ أخبرنى بكل شيء

فأخبرها جودفرى بكل ماجرى ولما فرغ من قصته أطرقت قليلا ثم قالت :

ـ أنه نبأ سيء ولكن قد يقع ما هو أسوأ من ذلك . هل يسمحون لى بالسفر معك الى سوثمبتون ؟

فقال جودفرى بلهجة الحزن

ـ أظن ذلك ياعزيزتى وعلى كل حال سنحاول ذلك . أظن أنه قطار عادى فلك حق السفر فيه

أخذا بعدئذ يتنقلان طول النهار من مخزن الى آخر الى أن ابتاع جودفري كل ما يحتاج اليه . ولما وصلا الى محطة وورلو وجدا الضابط الذى أنبأه عنه الموظف الكبير في انتظاره وهو يحمل معه الاوراق التي وعده بارسالها وخطاباً رسمياً يتضمن ترقيته الى رتبة كولونيل

قالت اليصابات بلهجة الاسف وهي جالسة مع جودفرى فى صالون خاص

ـ أنهم كتبوا على الأمتعة « الماجور » بدلا من الكولونيل جودفرى

وصل القطار بهما الى سوثمبتون نحو منتصف الليل . ولما قدم جودفرى نفسه سأل عن موعد سفر الباخرة فقيل له أنه لم

يتعين سفرها الى الآن ولكن من المحتمل أن تبحر قبل انقضاء الاسبوع التالى

ابتهجت اليصابات بهذا النبأ أيما ابتهاج ولو أن كل ماقالته ان ذلك يطيل المهلة لكي يتمكن من اتمام قضاء مايحتاج اليه

قضى جودفرى واليصابات هذه الايام فى أتم سعادة وهناء اذا استثنينا شبح الفراق المخيف والرسائل البرقية والتليفونية التى كانت ترسل اليهما كل يوم من لندن . وقد زاد ابتهاجهما لان المدة طالت الى آخر اجازة جودفرى

أخيرا انقضت الساعات والايام ووقفت اليصابات على ظهر الباخرة تودع زوجها فقالت

ـ لم نخدع على الاقل

ثم أشارت الى ضابط آخر وزوجته وهى واقفة كاسفة البال وقالت :

ـ اننا احسن حظاً ياجودفرى . اظن ان هؤلاء لم ينقض على زواجهما غير يوم واحد

كان المشهد على ظهر الباخرة مؤثراً مفجعاً . وقد سافر أناس كثيرون على ظهر هذه الباخرة الى ميادين القتال المختلفة كمصر وأفريقيا وغيرها فكانت الوجوه كاسفة وصراخ النساء يتعالى . أما اليصابات فقد أظهرت ثباتاً وهدوء الى النهاية وصفرت اكاليلا

من الزهر وقدمته الى جودفرى

أخيراً دق الجرس الثانى فكان وقعه على الآذان أشد وقعاً من أجراس الموت

قامت اليصابات وقالت

ـ أستودعك الله ياحبيبي . أستودعك الله . تذكر ماقلته لك دائما وهو أننا لن نفترق ثانية ، بعيدين أو قريبين ، أحياء أو أمواتاً لان حبنا حب أبدى أعطى لنا منذ البدء

فقال جودفرى

ـ نعم . أعرف ذلك وأثق ان حبنا حب خالد لايفنى الى الابد ليباركنا الله يا اليصابات وليهيء لنا مايراه صالحا

ثم تعانقا وقبلها وقبلته

ابحرت الباخرة فوقفت اليصابات على رصيف الميناء واخذت تراقب جودفرى الى ان غابت الباخرة عن عينيها فعادت الى الفندق والقت نفسها على فراشه واخذت تقبل الوسادة التى كان يضعها تحت رأسه ثم بكت ما شاءت حزنا على حبيب غادرها فغادرتها معه السعادة والهناء

عادت اليصابات في قطار الليل الى « هوك هول » حيث لم تجد وسيلة بها تشفي آلامها المبرحة ووحدتها القاسية غير الاهتمام بأمر مستشفاها والقيام بأعمالها الخيرية الخاصة بالحرب بما اشتهرت به من الاقدام والنشاط

وصل جودفرى الى ممباسة بعد رحلة سهلة خالية من الاخطار لان حرب الغواصات لم تكن قد بلغت شدتها المعروفة . ولما وصل الى الميناء أبرق الي اليصابات انه وصل فى صحة جيدة وانه ينتظر منها الرد

أبلغ جودفرى ولاة الامور هناك خبر وصوله فدهشوا ولم يدروا السبب في قدومه ولا المهمة التى أسندت اليه وكل ما زعموه انه مسافر الى أوغندا للاتصال بولاة الامور الملكيين . وفى الواقع فعل ذلك ثم وضع خطة لمشروعه وافق عليها رؤساؤه وأفهموه أن له أن يفعل ما يشاء مادام لا يتعرض لشؤونهم

ويلخص ماوقع لجودفري فى تلك البلاد انه عول يوماً ما على زيارة رجل من رؤساء القبائل كان يشك فى ولائه واخلاصه . وكان هذا الرجل يقطن مع قبيلته على حدود أفريقا الشرقية الألمانية ولكن داخل الاراضي البريطانية وكان يسمي « جاجا » وهو من الذين اعتنقوا الدين المسيحى على يد أحد المرسلين الاميركيين واسمه المستر تافلت وقد شيد هذا المرسل كنيسة هناك . ولما علم جودفرى بخبره أرسل اليه كتاباً مع أحد الرسل ينبئه فيه بقدومه لزيارته وفعلا ذهب جودفرى مع حرس من الجنود الوطنين ومترجم وبعض الخدم ولكن لم يرافقه أحد من البيض لان الهجوم على الاراضى الالمانية كان قد بدأ فلم تستطع حكومة شرق افريقيا الاستغناء عن أحد من الجنود البيض لترسلهم فى مهمة سياسية

وكانت الرحلة طويلة شاقة فقضي جودفرى أياماً طويلة فى اجتياز أرض وعرة وغابات ملأى بالوحوش المختلفة على أنه وصل فى النهاية سالماً مع رجالة الى مدينة « جاجا » حيث قابلهم المستر تافلت ودعا جودفرى فنزل ضيفاً فى منزله

وكان المستر تافلت رجلا نشيطا لا يتجاوز الثلاثين من عمره حكيما قادراً فشيد الكنيسة وتعلم لغة السكان وبنى مدرسة ثم أخذ فى مكافحة الدجالين والعرافين بمساعدة « جاجا » وجانب من السكان الذين قبلوا تعاليمه

على أن ذلك أفضى الى خلق المشاكل والاضطرابات فان معظم رجال القبيلة لم يشاطروا رأى رئيسهم « جاجا » وانقسموا الى حزبين أحدهما وهو الاضعف بزعامة «جاجا» والثانى وهو الاقوى بزعامة عمه « ألولو » وكان رجلا من الدجالين فهاله أن يكفر السكان بتعاليمه الخرافية عن السحر والارواح فأخذ يستميل اليه الناس ويبث فيهم روح البغضاء لأخيه وأعوانه

ثم جاءت الحرب فرأى « ألولو » وأتباعه الفرصة سانحة للتخلص من «جاجا» ومن تعاليم المعلم المسيحى المعقدة فعولوا على اجتياز الحدود الى الاراضى الالمانية حيث لا يكرههم الالمان على اعتناق شيء بل يدعونهم يعيشون كأجدادهم بمطلق حريتهم ويتزوجون من يشاءون من النساء

وصل جودفرى الى هذه البلاد فوجد الحال على ما وصفنا .

وكان لقدومه ضجة كبيرة وقيل أنه رجل كبير جداً أعظم من الحاكم نفسه . أما« ألولو »فقال أنه انما قدم ليجند كل رجل صالح للحرب وليسبي النساء والشيوخ ليشتغلوا فى اصلاح الطرق أو لجر المدافع فاضطرب السكان وهاجت الخواطر

علم المستر تافلت شيئا من ذلك بواسطة جاجا فنقل الخبر الى جودفرى فعقد هذا اجتماعاً عظيما من الرؤساء حضره ألوف من السكان . وخطب جودفرى بواسطة مترجمه فقال أن الملك فى حاجة الى مساعدتهم وبسط لهم الغاية التى جاء لأجلها فقابلوا أقواله بالصمت التام. وخطب« ألولو» فحمل على الدين المسيحى وعلى تدخل المستر تافلت فى عوائدهم القديمة وأهانته لاعتقاداتهم . ثم قال كيف يطلب الملك الينا أن نقاتل ونعمل وبطوننا خاوية

خطب الرئيس « جاجا » بعد ذلك ففند التهم التى ذكرها « ألولو » وندد به واتهمه بأنه يدبر مؤامرة ضده . ثم قال أن الارواح انبأته ان « ألولو » ينوى فوق ذلك اغتيال المستر تافلت وهذا السيد الكبير — مشيراً الى جودفرى — وحذره من مغبة عمله هذا قائلا لو أهرقت قطرة واحدة من دماء هذا السيد قضى علينا كلنا اذ تأتى جيوش الملك فتبيدنا على بكرة أبينا من مذنب وبرئ

وقد كان لاقواله هذه تأثير شديد فى النفوس فقام « ألولو » وقال انه يحتمل أن يفكر فى قتل أمه (وقد ماتت منذ زمن بعيد) ولكنه يستحيل أن يفكر في مس شعرة واحدة من رأس السيد

العظيم وانهم بالعكس يرغبون في تنفيذ جميع أوامره

استقر الرأى أخيراً على أن يقدموا الجواب لجودفرى على مطالبه بعد أسبوع . على أن الجواب قدم بعد ثلاث ليال وكان جوابا قاسيا

كان جودفرى جالساً بعد الغروب بقليل فى منزل المرسل الاميركى يكتب تقريراً . ولما كان اليوم يوم أحد كان المستر تافلت مشتغلا بالقاء عظة في الكنيسة بحضور «جاجا» ومعظم المسيحيين على أنه لم تمض مدة وجيزة حتي وقعت ضجة عظيمة وتعالت أصوات الصراخ والعويل فقام جودفري مسرعاً ومسدسه مشهوراً في يده واذ ذاك جاء بعض خدمه وأبلغوه أن الناس يقتلون فى الكنيسة فأمرهم أن يتبعوه وهرع الى المكان فوجده مملوءاً بجثث القتلى والذين يعانون سكرات الموت ورأى « ألولو » واقفاً وبيده شعلة من نار لاحراق الكنيسة فلما وقع نظره على جودفرى صرخ وصاح وأشار الى جثة المستر تافلت وهي ملقاة على الارض قائلا

ـ انظر ها هى جثة الدجال الابيض والدماء تسيل منه . تعال اشرب من دمه . تعال اشرب من دمه !

حمل جودفرى ومسدسه مشهوراً فى يده على الرجل وهو واقف يرقص بين جثث الأموات وصوب الى رأسه رصاصة اخترقتها فخر فى الحال صريعاً دون أن ينطق بكلمة

كان هذا آخر مشهد رآه جودفرى لمدة طويلة اذ اخترقت

حربة صدره فى تلك اللحظة وكذا سقطت ضربة فوق رأسه .
وقد رأى فى غيبوبته انه يرى رأس المومياء الذى كسره الاسقف
بوزيت وهو يتدحرج في غرفة مدام رينس فى لوسرن وبعدئذ
خيل اليه انه سمع مدام رينس وهي تضحك وفيما عدا ذلك لم
يتذكر شيئاً مدة قد تكون الف سنة أو لحظة لانه غرق فى حالة
لاأهمية للوقت فيها

***

أخذ جودفرى بحلم . فرأى انه كان مسافراً وأنه دخل منزلا
وبعد ذلك بمدة طويلة رأى انه مسافر بطريق البحر

جاءت بعد ذلك فترة خالية ثم حلم مرة أخرى وفى هذه المرة
رأى كل شيء واضحاً جلياً . فرأى انه قدم الى مصر وانه وضع
فوق فراش في غرفة كان يرى من نافذتها الاهرامات وهى قريبة
منه ثم وقف على تاريخها فرأى قدماء المصريين وهم يتعبدون
داخل الهياكل ورأى جثث الفراعنة وهى داخل توابيتها والملوك
وهم يصلون داخل مقصوراتهم مع الكهنة وهم يرتدون ملابسهم
البيضاء

انتهي هذا المشهد الذى تذكره جودفرى فيما بعد ولكن
هناك أموراً اخرى كثيرة نسيها

حلم جودفرى مرة أخرى حلماً غريباً لذيذاً استمر من يوم الى
يوم . فقد رأى أنه مريض جداً وأن الراهبات جاءت لتتولى خدمته

أثناء مرضه وقد جاءت فجأة فاضطربت قليلا فى البداية وقلقت ولكنها ظهرت بعد ئذ بمظهر الابتهاج والفرح الشديد

استمر هذا المنظر هنيهة الى ان شعر فجأة بوقوع شئ مروع قلب الامور وفك القيود وأحدث تغييرا عظيما جدا

و بينما كان جودفرى حزيناً لأن اليصابات لم تكن معه عادت بشكل آخر . وكان التغيير مما لا يمكن وصفه ولكنه كان موجودا بلا مراء

بدت اليصابات فى شكل متغير قليلا . ولم يتذكر جودفرى في الفترة بين مجيئها فى أول مرة وبين مجيئها في المرة الثانية كيف كانت ملابسها اللهم الاشيئين فقط كانت تلبسهما دائماً وهما الخاتم الصغير وعقد اللآلئ الذى أعطاه اياها يوم زواجهما . وكان صوتها أيضاً متغيراً أو بالحرى خيل اليه انه لم يسمع صوتها لانه كان يتكلم فى داخله لوجدانه لا لأذنيه فى الخارج . وقد أبلغته اليصابات أشياء غريبة عن أرض أخرى سيعيشان فيها معاً والمنزل الذى تعده لاستقباله والاشجار والحدائق المغروسة حوله وعن أمور أخرى لم يسمع عنها جودفري ثم قالت ان هناك أموراً أخرى كثيرة تريد أن تلقيها عليه ولكنها لا تريد

أخيراً رأى جودفرى حلماً آخر ظاهراً أبلغته اليصابات فيه انه سيصحو ويرى العالم مرة أخرى لمدة وجيزة فاذا لم يجدها فى خلالها فلا يحزن . وقد طلبت اليه فى حلمه أن يعدها بأن لا يحزن

ففعل واذ داك ابتسمت اليصابات فى وجهه وكسى وجهه بحلة بديعة من الجمال لم يرها من قبل . وبعدذلك فاهت بالكلمات التالية التى لم ينسها جودفرى طول حياته كأنها كتبت بأحرف من نار على صفحات قلبه قائلة :

ستصحو عما قريب ولا بدلى أن أعدك ياأعز عزيز لدى وياحبيبي ومنيتى انك سترانى قبل أن تنام مرة ثانية للمرة الاخيرة ولعمرى سأكون أنا التي أغني لك أغنية النوم الابدى حتى تنام وأنا التى سأتلقاك عند ما تصحو معى في عالم آخر وستشعر كذلك فى الفترة القادمة انني بجانبك دائماً وسأكون دائماً معك ولوانك لا رؤيتي الا الآن أقسم لى مرة أخرى أن لا تحزن

حلف جودفري وهو في حاله اليمين ثم خيل اليه انها مالت فوقه وأخذت تهمس فى أذنه بكلمات اثرت فى فكره ولكنه لم يدرك معناها لانها كانت بلغة لا يفهمها غير أنه أدرك انها تباركه وتدعو له

الفصل الحادى والعشرون

« الحب الأبدى »

استيقظ جودفرى وفاق من غيبوبته ثم نظر فيما حوله فألفي نفسه نائما فى غرفة صغيرة مقابل نافذة مفتوحة شاهد منها الاهرامات وهي قائمة كالابراج الضخمة الهائلة فايقن اذ ذاك انه لابد أن يكون هناك شيء من الحقيقة فيما رآه من تلك الاحلام الغريبة

رفع جودفرى ذراعه فرآها نحيفة كالقصبة يكاد يري من خلالها ضوء الشمس ثم وضع يده على رأسه فرآها معصوبة واذ ذاك دخلت سيدة ترتدى ثياب ممرضة فسألها عن مكان وجوده كما حدث ذلك مرة وهو جريح فى مستشفي فرساى

فنظرت اليه السيدة وقالت بلهجة ايرلندية

ـ انك فى مستشفي « ميناهوس » . ألا ترى الاهرامات بجانبك ؟

فأجابها قائلا

ـ هذا ماظننته . كم لبثت هنا ؟

ـ شهران أو أكثر . لااستطيع أن أخبرك بالضبط أيها الكولونيل فان هناك كثيرين من الجرحي يدخلون المستشفي ويخرجون منها . والآن لايسعني الا أن اعرب لك عن ابتهاجي بافاقتك من غيبوبتك فقد كنا نزعم انك لاتصحو حافظاً لقواك العقلية

فقال جودفري

ـ هل زعمت ذلك ؟ انني كنت واثقا دائما بأنني سأصحو

ـ ومن أين علمت ذلك ؟

ـ لان شخصا ماأحبه جاءني واخبرني بذلك

فحدقت به الممرضة وقالت

ـ انك تقصدني اذاً أو تقصد زميلتي التي تهتم بتمريضك اثناء الليل فانه لايسمح لاحد غيرنا بالدخول عليك اذا استثنينا الاطباء . الآن اشرب هذه الجرعة أيها الكولونيل ونم اذ عليك ان لاتتحدث كثيرا لانك ان حركت فكك انفكت عصابات رأسك

نام جودفري ولما استيقظ كان الليل قد أرخي سدوله وأضاء البدر في سماء مصر الصافية على جانب الهرم الاكبر فكساه حلة فضية . ثم سمع أصوات أشخاص يتكلمون في الخارج عرف من بينهم صوت الممرضة الايرلندية ومعها رجل آخر يتكلمان بصوت خافت ولكن جودفري كان يتمتع بحاسة سمع شديدة

بحيث سمع مايقولان فسمع الممرضة تقول

ـ هو ماقلته لك أيها الماجور . انه حافظ لقواه العقلية مثلى ومثلك عـدا ما ذكره لى عن ذاك الشخص الذى يظن انه يزوره

فقال الطبيب

ـ حسن . بما أنك اشتهرت بيننا بالصدق فلا يسعني الا تصديقك ولو انني لاأزال أراهن بما نلته من الصيت في حرفتي على أنه لن يثوب الى رشده . فقد أصيب بصدمة شديدة فوق جرح قديم ومن الغريب أن يصحو حافظا لقواه العقلية بعد كل هذه الشهور

فقالت الممرضة

ـ بالطبع أيها الماجور انه يتكلم بأقوال لا معنى لها عن سيدة

فدهش الطبيب وقال

ـ ومن أين عرفت انها سيدة . انك كروائى يصنع قصة من لاشيء . نعم لاريب فى انه يهذى وهذا شيء ضار . اطردى عن فكره كل هـذه الاوهام بقدر ما تستطيعين وسليه بقصصك اللطيفة وسأفحصه غداً

ابتعدت الاصوات فضحك جودفرى فى نفسه لانهما يتحدثان عن « هذيانه » وهو يعلم حق العلم انه لم يكن هناك شيء من ذلك . فقد كانت اليصابات معه . نعم كان يشعر بوجودها الى جانبه ولو أنه لم يستطع أن يسمع صوتها أو يراها . ولـكن كيف

يكون ذلك وهو فى مصر وهي فى انكلترا ؟ عجب جودفرى لذلك ثم نام مرة أخرى

تعافى جودفرى واسترد قوته شيئاً فشيئاً ثم عرف كل ما أصابه أو بالحرى كل ما يعرفه الذين وقفوا على خبره ممن كانوا معه فى المستشفى. فقد علم من ممرضته انه ضرب فى الكنيسة فى مكان ما فى أفريقا وان رجال الحرس والذين كانوا معه حملوا على الوطنيين وأطلقوا النيران عليهم ففروا ولم يبق منهم الا القتلى . وقد اعتقد السكان انهم قتلوا المرسل وضابط الملك العظيم فهربوا الى افريقا الشرقية الالمانية حيث لم يسمع عنهم أحد شيئاً . وقد أمر الرئيس « جاجا » بحمله من الكنيسة وهي تحترق الى منزل المرسل ثم أرسل رسلا الى أقرب مركز من مراكز الحكومة لاستدعاء الطبيب . وقبل وصول الطبيب جاء أحد الوطنيين وكان له دراية بالمبادئ الطبية فغسل جروحه وعصبها وكان أحدها فى الرأس أصابه من جراء آلة حادة والآخر فى صدره وقد نشأ عن طعنة أصابت الرئة وكان هذا الرجل من حين الى حين يقطر بضع نقط من اللبن فى فمه

وصل الطبيب أخيراً مع قوة مسلحة من الحرس وأجرى له عملية جراحية دقيقة خففت ضغط الدم على رأسه وانقذت حياته

مكث جودفرى فى هذا المنزل نحو شهر وأخيراً حمل على نقالة وهو لايزال فى غيبوبته الى أن وصل الى ممباسا وهنا مكث

نحو شهر آخر وأخيراً لما وجد أنه لايزال في غيبو بته نقل على إحدى البواخر الى مصر

شاع فى خلال ذلك خبر قتله وأرسل تقرير بهذا المعنى الى انـكلترا . ولا ضطراب الحالة في بداية الحرب لم يصحح خبر وفاته لانه كان قد مضى نحو شهرين قبل وصوله إلى ممباسا وهى أول مكان فيه آ لة تلغرافية.وفوق ذلك كان لدي رجال الحـكومة في تلك المدينة عدد كبير من القتلى والجرحى الذين يجب أن نرسل اسماؤهم إلى انـكلترا وكانوا قد نسوا ماد كروه عن جودفرى الذى لم يستطع أن يذ كر ما أصابه . وهكذا اتفق لسوء الحظ أن اعتقد الناس فى انـكلترا بموته وهذا ماحدث لـكثيرين أثناء هذه الحرب الـكبري

***

سأل جودفرى عند ما صحا من غيبو بته وهـو فى مستشفى « ميناهوس » عن خطابات له فلم يجد شيئاً . وكان قد اتفق مع الشخص الذى يحتمل أن يراسله وهى اليصابات أن تراسله بواسطة وزارة الحربية ولـكن هذه الخطة لم تفلح لان خطاباتها أرسلت الي مكان آخر وهكذا ضاعت بعض رسائلها والباقي لم يسـلم اليه بعد ورود خبر وفاته فخطر له أن يرسل تلغرافاً الى اليصابات ينبئها فيه أنه تماثل للشفاء فقام بشقة وكتب التلغراف وأعطاه لممرضته

لارساله ووعدها بدفع أجرته على أثر استلام مرتبه

تناولت المرضة الرسالة ثم نظرت اليه نظرة غريبة وسارت كأنها ذاهبة لارسال رسالته

نزل جودفري بعد ذهاب الممرضة الى الطابق الاسفل وجلس بمساعدة خادمين على «الفرندة» الجميلة الواقعة أمام الفندق وكان أمامه منضدة عليها بعض صحف انكليزية قديمة فتناول احداها وأخذ يسلي نفسه بقراءتها وكان أول شيء وقع عليه نظره عنوانا يقول : « وفاة رئيسة مستشفى باسلة » فشعر باضطراب شديد ورغبة عظيمة فى قراءة هذا النبأ فقرأ مايلى

« ظهرت من البحث فى أسباب وفاة المرحومة مسز جودفري نيت زوجة الكولونيل نيت الذى قتله الوطنيون فى شرق افريقا منذ بضعة شهور — أمور تدعو الى الاعجاب . فقد تبين من شهادة مسز بارسن احدى الممرضات في مستشفي « هوك هول » انه عند ما أعطي النذير باقتراب مناطيد « زبلن » فى خلال الغارة التى وقعت الاسبوع الماضى على المقاطعات الشرقية ومقاطعة لندن نقل المرضي الذين كانوا في الغرف العليا من المستشفي الى الغرف السفلى وبعد برهة وجيزة رأت مسز نيت انه لايزال فى الطابق الأعلى جندى بترت رجلاه فهرعت تتبعها مسز بارسن الى الطابق الأعلى لمساعدة ذاك الجريح ولما وصلت مسز بارسن الى باب الغرفة حدث انفجار شديد فوق السقف فانتظرت حتى سكن الغبار ثم

دخلت الغرفة ولما وصلت الى الفراش رأت مسز نيت ملقاةفوق الجريح وهي جثة هامدة . وقد قال الجندي وقد نجا من الموت انه لما أخذ البناء يتهدم أمرته مسز نيت أن يلزم السكون ثم القت نفسها فوقه لتحميه وبعدئذسقط حجر كبير فوق ظهرها فنطقت بكلمة واحدة هي اسم شخص ثم لزمت الصمت . ومسز نيت هي ابنة المرحوم السير جون بلاك صاحب مصانع السفن المشهورة وهي من أغنى نساء انكلترا وقد تزوجت الكولونيل نيت منذ بضعة شهور قبل سفره الى شرق أفريقيا وستدفن حسب وصيتها فى كنيسة الدير فى « اسكس »

قرأ جودفرى هـذا النبأ المروع مرتين ثم نظر إلى تاريخ الجريدة فوجد انه قد مضي عليـه نحو شهرين فدمدم قائلا فى نفسه

ـ لما أتت إلىّ فى المنام كانت قد ماتت . آه ! الآن أدركت شيء

كاد جودفرى يسقط على الارض لولا أن أمسكه خادم كان على مقربة منه . ولـكن هـذه ما هى الا مصيبة من مصائب الحرب التى لاعداد لها

* *

بعد ثلاثة أشهر وصل جودفري إلى لندن وهو لايزال هزيل

الجسم منهوك القوى مصاباً بسعال شـديد بسبب الجرح الذى أصابه فى صدره . وفى اليوم التالى لوصوله قابل ذاك الموظف الـكبير الذى أرسـله إلى شرق أفريقيا وهناك جلس فى الغرفة نفسها وعلى المقعد نفسه ثم قال

'انى آسف يا سيدى على فشل مهمتي لاسباب لم يكن فى وسعى التغلب عليها . ولا يسعى الا أن أقول اننى قضيت واجبي وبذلت أقصى مافى وسعى

فقال الموظف

ـ أعرف ان هذا ليس خطأك اذا كان أولئك الوحوش قد حاولوا قتلك . ان المساعى التى تبذل في تلك البلاد المشؤومة تصاب بالفشل الآن اذهب الي منزلك لتسترد قواك وتتمكن من العودة الى الخدمة وسوف تجزى على جليل خدماتك أحسن الجزاء

فقال جودفرى

ـ لامنزل لى ولن أصلح للخدمة مرة أخرى

ثم غادر الغرفة فقال الموظف في نفسه بعد خروج جودفرى

ـ نسيت أن زوجته ماتت في إحدي غارات زبلن . مسكين هذا الرجل

ثم تنهد وهز كتفيه وعاد الي عمله

ذهب جودفرى الي المنزل الصغير في « همبستد » حيث كانت مسز بارسن فى انتظاره فلما التقيا تعانقا و بكيا طويلا

وأخيراً قال جودفرى

ـ انك كنت سعيدة جداً ياأماه

فتأوهت وقالت

ـ نعم . نعم ان حبها ليس من هذا العالم وقد قالت لى غير مرة انها لاتأمل ان تراك مرة أخرى فى هذا العالم على قيد الحياة ... انتظر . لدى شئ لك

ذهبت مسز بارسن ثم عادت ومعها الخاتم الصغير الذى اشتراه من لوسرن وكراسة صغيرة ثم قالت

ـ هذه مفكرتها التى تعودت أن تكتب فيها كل يوم

قرأ جودفرى فى هذه المذكرة كثيراً من الاقوال اللذيذة المقدسة ومنها علم أن خبر وفاته المكذوب سبب لاليصابات صدمة شديدة لزمت الفراش بسببها مدة ولو انه من الغريب انها كانت لاتعتقد بموته اذ كتبت فى مذكرتها هذه تقول

« لم يمت جودفرى . نعم انني واثقة بانه لم يمت »

قرأ جودفرى بعد ذلك عبارات غريبة كتبتها بلهجة الفرح والابتهاج عن رؤيتها إياه فى المنام وهو مريض ولكنها كانت تعتقد انه سيشفي

وفي يوم وفاتها كتبت العبارة الغريبة التالية :

« يخيل الى اننا ـ أنا وجودفرى ـ سنفترق لمدة وجيزة وان هذا الفراق سيوثق عرى اتحادنا. أشعر بسعادة غريبة لم أشعر بها من قبل وأرى أبواباً مفتوحة ومروجاً خضراء يانعة ارتع فيها مع جودفرى وأمرح ، يخيم فوقنا حب الله الذى يشمل كل حب آخر . آه ! ما اعظم خطيئتي وحماقتي لانني رفضت منذ زمن بعيد هذا الحب الذى ربط روحى بروح جودفرى رباطا لاتنفصم عراه لانني كما قلت لك ياعزيزى من قبل ان حبنا حب أبدى. تذكر ذلك دائماً ياجودفرى اذا وقعت عيناك على هذه السطور وأنت حى . وبعد ذلك لاحاجة الى الذكرى »

بذلك انتهت مذكراتها

نشر اسم جودفرى بين أسماء العجزة وعوفى من الخدمة فى الجيش فسافر مع مسز بارسن الى قصر إجليفى فى لوسرن وهناك ـ . الاسقف بوزيت وكان قد كبر وشاخ فدعاه أيضاً الى البقاء معه فى قصر إجليفي

جاء فصل الشتاء فزادت حالة جودفرى سوءاً الى أن شعر فى فيالنهاية بأنه سائر في سبيل الموت فابتهج بلقائه . وفى مساءذات يوم وصله خطاب من مدام رينس وكان مكتوباً بيد مضطربة . وقد جاء فيه مايلى :

« سأذهب الى عالم الارواح وكذا أنت يا جودفرى لأ ننى أعرف كل شيء عنك وكل ما أصابك. انك أكلت تفاحتك ولكن البذور ـ آه ! انها تنمو الآن وسوف لا تمضى مدة وجيزة حتى تجلس مع شخص آخر تحت شجرة الحياة الجميلة التى حدثتك عنها في الكنيسة يوم زواجك . وأنا . أين أجلس ؟ آه . لا أدرى ولكن هناك فرقاً بيننا فستذهب أنت قرير العين مبتهج القلب . أما أنا فان الخوف يكاد ينهش فؤادى . نعم . نعم ستبتهجان وهذه الحقيقة اعترف لك بها على رغم كرهى لك. انى اسفة اذا كنت قد مددت اليك يد الاذي فأتوسل اذا ما ذهبت الي عالم الارواح أن تقول كلمة طيبة فى حق أمك المذنبة رينس . لقد زعمت انك ستخسر ولكنك ربحت كل شيء وأنا التى خسرت. استودعك الله. وأدع الاسقف الشيخ أن يصلى لاجلى وانى واثقة انه سيفعل لانه رجل صالح »

فى تلك الليلة وقف شبح من الجلال والبهاء بجانب فراش جودفرى وأخذ يهمس في أذنه عن أمور غريبة . وقد رأى جودفرى هذا الشبح واضحاً جلياً وهو يبدو في أجمل حلل البهاء والجمال !

ثم خيل اليه انها تقول .

ـ لا تخش شيئاً لأ ننى معك ومع من هم أعظم منى. أعلم

ياجودفرى ان لكل شئ معني وان كل فرح لا ينال الا بالمشاق والآلام . اذ حياتنا كانت قصيرة مؤلمة ولكنها ليست الحياة الحقيقية بل هى الباب الاسود القذر الذى يجب أن نروي عتبته بدموعنا ونلوى مفاتيح اقفاله بقوة الايمان والصلاة. لاتخف اذن من ظلام الردهة لان وراءها يضئ النور الابدى في تلك الارض أرض الحب والصفح والغفران . ابتهج اذن ياجودفرى لانك الان تقطع آخر مرحلة من مراحل المتاعب والأحزان وعما قريب ترى فجر السلام مشرقا فيبهجك نوره الوضاح

استيقظ جودفرى ـ وكان الاسقف جالساً عند رأسه ومسز بارسن قد قدميه وهى تبكى ـ ثم قال

ـ هل رأيت شيئاً ياأبتي ؟

فقال الاسقف

ـ كلا ياولدى . ولكنى شعرت بشئ. فقد خيل الى أن ملاكا واقفا بجانبي

فأخبره جودفرى بكل ما رآه كما أخبره بأمور أخرى لم يكن يجرأ على ذكرها لأحد

فأجابه الاسقف

ـ نعم قد يكون ذلك ياولدى لان الذين يتحملون الالام أكثر من غيرهم يجزهم الله جزاء أوفي ان الذى تحمل الالام يدرك مقدار آلامنا والذى كفر عن خطايانا يغفر ذنوبنا وذلاتنا لان

حبه هو الحب الصادق الأبدى . اذهب الى ربك بابتهاج وفرح الى العالم الجديد ولاتنس أباك الشيخ الذى يرجو أن يلتحق بك عماقريب

نام جودفرى لحظة ليستيقظ في مكان آخر فى أرض ذاك الحب الأبدى التى ذهبت اليها اليصابات من قبل حيث وجد حبيبته واقفة وقد فتحت اليه ذراعيها للقائه وتحيته

(انتهى)